قضـايـا ونصـوص

في ضوء العصرين الأموي والعباسي

إعـداد

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(طه: ٢٥- ٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـــــة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبع طريقهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فقد تغيرت ظروف الحياة وطبيعتها في العصر الأموي ، فتحولت الخلافة من خلافة دينية يتولاها أكثر المسلمين صلاحا وتقى وكفاءة ، وأقدرهم على القيام بتبعاتها- إلى ملك عضود يتوارثه أفراد البيت الأموي .

واتسعت الفتوحات ، وتدفقت الأموال على خلفاء بني أمية ، وبما أن دولة بني أمية كانت عربية أعرابية ، وكان خلفاؤها يحسنون تذوق الشعر ونقده ، ويعرفون له دوره ومكانه ، فإنهم عملوا على تقريب الشعراء والأدباء والنقاد ، وأجزلوا لهم العطاء ، فالتاريخ الأدبي يمدنا بأسماء عدد غير قليل من الشعراء الذين كانوا منقطعين أو كالمنقطعين إلى خلفاء بني أمية وأمرائهم من أمثال : الأخطل التغلبي ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ، والمتوكل الليثي ، وعبد الله بن همام السلولي ، وأبي صخر الهذلي ، وأبي العباس الأعمى ، ونصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وعدي بن الرقاع ، وغيرهم .

وكان لنشأة الأحزاب وتعدد الفرق التي كان الشعر لسان حالها أثر واضح في ازدهار الحياة الأدبية في هذا العصر، فقد كان لكل فرقة شعراؤها الذين يحملون لواءها الفكري ، ويذودون عن حياضها ، وربما كالوا لأعدائها الهجاء المر والمثالب الفاحشة .

وفي هذا العصر برزت المجالس الأدبية والنقدية ، وانتشرت في الشام والعراق والحجاز ، واشتهر من بينها : مجلس عبد الملك بن مروان ، ومجلس سكينة بنت الحسين ، ومجلس عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب ، ومجلس ابن أبي عتيق ، وكان لهذه المجالس أثر واضح في الحياة الأدبية وإسهام بارز في التقويم والنقد .

وإلى جانب هذه المجالس كانت الأسواق الأدبية في المربد بالبصرة والكناسة بالكوفة تجذب إليها الأدباء والنقاد ، وعشاق الشعر والأدب ، وتقوم بدورها في إثراء الحركة الأدبية وتصحيح مسارها .

وفي هذا العصر تطورت الحياة الاجتماعية والعقلية والفكرية مما هيأ لبروز ظواهر أدبية كفن النقائض والغزل العذري .

وفي العصر العباسي واصل خلفاء بني العباس مسيرة أسلافهم الأمويين في تشجيع العلماء والأدباء والشعراء ، وإغداق العطاء لهم ، بل إغراقهم بالمنح والعطايا أحيانا ، فقد وصل الخليفة المهدي مروان بن أبي حفصة بمائة

ألف درهم على قصيدة مدحه بها ، ووصل هارون الرشيد سلم بن عمرو بن حماد الخاسر وحده بعشرين ألف دينار .

ولم يكن الإغداق على العلماء والشعراء قصرًا على الخلفاء وحدهم ، فقد شاركهم، بل نافسهم فيه الوزراء والأمراء وبعض أصحاب الشرف والجاه مما كان له أكبر الأثر في نهضة الحياة الثقافية بصفة عامة ، والأدبية والشعرية بصفة خاصة .

وكان لازدهار حركة التأليف والترجمة ، وامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى ، وانفتاحها على الثقافة اليونانية والفارسية والهندية أثر واضح في تطور العقلية العربية ، ونشأة أنماط أدبية وفكرية جديدة .

ونتناول في هذا الكتاب بعض الظواهر الأدبية والقضايا البارزة في العصرين الأموي والعباسي ، كموضوع الغزل وألوانه من عذري وصريح وتقليدي ، وازدهار فن النقائض في العصر الأموي ، وقضية الشعوبية بين جذورها الأموية وحدتها العباسية ، كما أتناول بعض النصوص الأدبية لإلقاء الضوء عليها .

وسأعمل جاهدًا على توخي الوضوح ، والسهولة واليسر، والبعد عن الحشو والتعقيد ، راجيا أن أقدم مادة أدبية مشوقة ، تسهم في تنمية الذوق الأدبي لطلابنا ، وتربي فيهم ملكة القراءة الشعرية الواعية ، وتغير من

نظرتهم إلى التراث الذي يرى فيه بعضهم نوعا من الطلاسم ، وتشعرهم بأن تراثنا ثروة لا نظير لها لو أننا أعدنا قراءته قراءة واعية تكشف عن روعته وسر جماله ، وأبعاده الحضارية والمعرفية .

وإني لأرجو أن أكون قد وفّقت فيما قصدت ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وهو الموفِّق والمستعان .

أ.د / محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

يقسم الغزل – بصفة عامة – إلى ثلاثة أقسام :

أ ـ الغزل العذري:

وهو غزل عفيف ، يدور في الغالب حول أثر الحب في النفس ، ودلائل الصبابة والشوق ، وما يكابده أو يعانيه الشاعر من الصد والهجر، أو البعد والحرمان.

وهذا اللون من الغزل ينأى غالبا عما يخدش الحياء ويثير الغرائز ، كما يترفع عن تجسيد مفاتن المرأة الجسدية ، أو الإفصاح عن التطلعات الجنسية نحوها.

ب ـ الغزل الصريح :

ويسميه بعض الكتاب الماجن أو المكشوف ، ويعتمد هذا اللون في الغالب على تصوير مفاتن المرأة ، واللهفة نحوها ، وربما النيل منها ، أو حتى تصويرها هائمة بمعشوقها على نحو ما صور عمر بن أبي ربيعة بعض من شبب بهن.

جـ ـ الغزل التقليدي :

ويسميه بعض الكتاب الغزل الصناعي[1]، وهذا الغزل في الغالب لا يصدر عن تجربة شعورية صادقة عاشها الشاعر وكابد آلامها ، إنما يصدر

(١) انظر: الغزل للدكتور/ محمد سامي الدهان ١/ ٣٧ (سلسلة فنون الأدب العربي ، ط: دار المعارف سنة ١٩٨١م) .

عن حس تقليدي ، أو رغبة في إظهار القدرة على مجاراة أهل الفن ، أو يكون ناشئا عن الالتزام بنمط القصيدة القديمة التي كان الشاعر يحرص على بدئها بالغزل ، أو الوقوف على الطلل أو بكاء الديار والدمن ، وربما كان كلف شعراء هذا اللون من الغزل بالفن الشعري والإجادة فيه أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة [1].

ولم نجد عصرا من عصور الأدب القديم استوعب فنون الغزل مثلما استوعبها العصر الأموي .

وقفة مع الغزل العذري:

ومع أن معاني الغزل العذري وما تنطوي عليه من مشاعر وعواطف تكاد تكون جزءًا من طبيعة النفس البشرية فإن هذا الغزل قد نما وترعرع وصار فنا شعريا له سماته وخصائصه في رحاب العصر الأموي ، فقد ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية على ازدهار هذا اللون من الغزل .

فقد أغدق خلفاء بني أمية الأموال على شباب الحجاز رغبة في إلهائهم عن شئون السياسة والحكم ، كما تطورت الحياة الاجتماعية في هذا العصر تطورًا واضحا نتيجة هذا الثراء وتدفق الأموال على خزائن بني أمية ، فتحول أكثر الناس من حياة البداوة وسكنى الخيام إلى حياة الحضر وسكنى المدن ، واختلط العرب بالأجناس الأخرى من أبناء الأمم المفتوحة ،

(١) انظر : حديث الأربعاء لطه حسين ٢/ ١٧ ، ط: دار المعارف .

فامتزجت الثقافات ، وبدأت بعض عادات وتقاليد هذه الأمم تدب في المجتمع العربي .

لكن قرب الناس في هذا العصر من عصر النبوة ، واحتفاظ أكثر الناس بعاداتهم وتقاليدهم وشيمهم العربية الأصيلة قد شكل إلى حد كبير حاجزا بينهم وبين المجون والخلاعة ، وجعل تقبل هذا المجتمع للغزل المكشوف موضع أخذ ورد ، فكان الغزل العذري هو ذلك الفن الذي يمكن لهذا المجتمع أن يتلقاه بالقبول والاستحسان دون أن يجد حرجا في الإفصاح عن مشاعره وعواطفه في ضوء الضوابط والقيم التي تشكل هذا اللون من الغزل في رحابها ، حتى رأينا بعض الزهاد والنساك يدرجون في عداد شعراء هذا الغزل من أمثال عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة [1].

ومن أبرز شعراء هذا اللون : جميل بن عبد الله بن معمر العذري المعروف بجميل بثينة ، وعلى الرغم من كثرة الأخبار والروايات التي تتعلق بحياته وقصة حبه لبثينة واختلاف هذه الروايات وتضاربها أحيانا فإن قصته تتلخص في أنه أحب فتاة من أبناء عمومته وهي بثينة بنت حبأ بن حن بن ربيعة العذري ، أحبها وهو ما يزال غلاما صغيرا ، وهي ما تزال جويرية لم تدرك بعد ، وفي ذلك يقول [2]:

---

(١) انظر : العصر الإسلامي ، د/ شوقي ضيف ، صـ ٣٦٢ ، ط : دار المعارف سنة ١٩٨٦م .

(٢) ديوانه صـ ١٦ ، ١٨ ، ط : دار بيروت سنة ١٩٦٦م .

علقت الهوى منها وليدا فلم يـزل إلى اليوم ينمى حبهـــا ويزيـد

وأفنيت عمري بانتظاري وعـدها وأبليت فيها الدهر وهو جديـد

وتَغزَّلَ جميلٌ ببثينة فسار شعره في القبيلة والناس ، فلما جاء ليطلبهـا مـن أبيها رده خائبا وضن عليه بها ، لأن عاداتهم كانت تقضي بألا يزوجوا بناتهم من تغزل بهن حتى لا يلحقهم عارها ، ويقـال : إنهـم زوجوهـا إيـاه سـترا لحالها ، فرفض والدها أن يزوجها جميلا وزوجها رجلا آخر من بني عذرة ـ أيضا ـ يقال له نبيه بن الأسود ، وفي ذلك يقول جميل [1]:

لقد فـرح الواشون أن صـرمـت حبلي بثيـنة أو أبـدت لنـا جـانب البخـــل

يقولـون مهـــــلا يـا جميـل وإنني لأقســم مالي عن بثينــة من مهـــل

أحلمـــا ، فقبـل اليوم كان أوانـــه أم أخشى؟ فقبل اليوم أوعدت بالقـتل

لقد أنكحوا جهـــلا نبيهـــا ظعينـــة لطيفة طيّ الكشح ذات شوى خـدل [2]

وكم قـد رأينـا سـاعيـا بنميمـــة لآخـر لم يعمـد بكـف ولا رجـــل

إذا مـــا تـراجعنـا الـذي كان بيننـــا جرى الدمـع من عيني بثينـة بالكحـــل

ولو تـركـت عقـلي معي مـا طلبتهـــا ولكن طلابيهـــا لما فات من عقلـــي

فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بهـــا ويـا ويـح أهـلي ما أصيـب به أهلـي

---

(١) ديوانه ، صـ ٣٦ ، وانظر مقدمة ديوانه ، صـ ٥ وما بعدها .

(٢) الشوى : المراد به هنا: الأطراف ، الخدل : الممتلئ .

وقد حاز شعر جميل ثناء النقـاد وأسـر قلـوب العشـاق ، ومـا اسـتجاده النقاد قوله:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصـره الواشي لقـرت بلا بلـه[1]

بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنـى وبالأمل المـرجـو قـد خاب آملـه

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أواخـره لا نلتـــــقى وأوائلـــه

وقالوا هذا هو المحب الذي يقنع بالقليل ، ولـو كـان نظـرة خاطفـة ، أو طيفا زائرا ، أو وعدا ممطـولا ، أو أمـلا مبددا ، لا هذا الذي يقول :

ولست براض من خليل بنائــل قليل ولا أرضى لــه بقليـــــل

لأن هذا كلام مكافئ وليس بعاشق [2].

وبعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله إلى كثير ، فقالـت لـه : يـا بـن أبي جمعة ما الذي يدعوك إلى ما تقـول من الشعر في عزة وليست على ما تصـف من الحسن والجمال ؟ ولو شئت صرفت ذلك إلى من هو أولى به منهـا أنـا أو مثلي ، فأنا أشرف من عزة وأوصل ، وكانت عائشة قد أرادت أن تختبر مدى حبه لعزة وتمسكه بهـا دون سواهـا ، فقـال كثير[3]:

---

(١) قرت بلابله : هدأت وساوسه وسكنت .

(٢) انظر: الموشح للمرزباني ، صـ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، واتجاهات النقد الأدبي العربي لأستاذنا الدكتور المرحوم / محمد السعدي فرهود ، صـ ١٦٧ ، والبيت لكثير عزة .

(٣) الشعر والشعراء ، صـ ٣٤٤ ، ط : دار إحياء العلوم ، بيروت .

إذا ما أرادت خلة أن تزيلنا أبينا وقلنا الحاجبية أول[1]

سنوليك عرفا إن أردت وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوصل

لها مهل لا يستطاع دراكه وسابقة في الحب ما تتحول

فقالت عائشة : والله لقد سميتني لك خلة وما أنا لك بخلة ، وعرضت عليّ وصلك وما أريد ذلك وإن أردت ، ألا قلت كما قال جميل [2]:

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اعتزال الباطل

ولباطل ممن أحبّ حديثه أشهى إليّ من البغيض الباذل

ولرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل

فأجبتها في الحب بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي

لو كان في قلبي كقدر قلامة حب وصلتك أو أتتك رسائلي

فقد أدركت عائشة بحاستها الأنثوية أن جميلا أصدق في حبه من كثير ، فقد شغله حب صاحبته ، وملك عليه قلبه فلم يبق فيه مقدار قلامة لغيرها ، أما كثير فقد ضعف أمام أول اختبار، وأسرع بعرض وصاله على أول من أومأت له ، ولم يزد على جعل صاحبته أولى من غيرها لما لها من سابقة في الحب ، وليس هذا بصنيع المحب الصادق ، ومن ثمة استحسنت عائشة أبيات جميل وقدمتها على أبيات كثير.

---

(١) تزيلنا : تفرقنا .

(٢) الشعر والشعراء ، صـ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

ومما يستجاد لجميل في هذا اللون من الغزل قوله في بثينة [1]:

لها فـي سـواد القلـب بالحـب ميعـة ... هي الموت أو كـادت على الموت تشـرف
وما ذكرتـك النفـس يابـثـن مـرة ... من الدهـر إلا كـادت النفـس تتلـف
وإلا اعتـرتنـي زفـرة واستكـانـة ... وجاد لهـا سجـل مـن الدمـع يذرف [2]
وما استطرفت نفسـي حديثـا لخلـة ... أسـر بـه إلا حديثـك أطـرف
وبين الصـفا والمروتيـن ذكرتكـم ... بمختلف ، والنـاس سـاع وموجـف [3]
وعنـد طوافـي قـد ذكرتـك مـرة ... هي الموت ، بل كادت على الموت تضعف

وقوله حين حجبوها عنه [4]:

فإن يحجبوها أو يحـل دون وصلها ... مقـالـة واش أو وعـيـد أميـر
فلم يحجـبوا عيني عـن دائـم البكـا ... ولن يملكوا ما قد يجن [5] ضميري
إلى الله أشكـو مـا ألاقـي من الهوى ... ومـن حـرق تعتادنـي وزفيـر
ومن كرب للحـب في باطـن الحشـا ... وليل طويـل الحـزن غـير قصيـر
سأبكي على نفسـي بعـين غزيـرة ... بكاء حزيـن فـي الوثـاق أسيـر
وكنا جميعا قبـل أن يظهـر النـوى ... بأنعـم حالـي غبطـة وسـرور

---

(١) ديوانه ، صـ ٣٢ ، وانظر العشاق الثلاثة لزكي مبارك ، صـ ٤٥ .

(٢) السجل (بفتح السين وسكون الجيم) : الدلو العظيمة مملوءة .

(٣) موجف : مسرع .

(٤) ديوانه ، صـ ٦١ .

(٥) يجن : يستر

فما برح الواشـــون حتـى بـدت لنـــا بطـــون الهوى مقلوبـة بظهـــــور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنمـا الدنيـــا متـــاع غـــــرور
ولو أن امرأ أخفى الهوى عن ضميـره لَـمُـتُّ ولـم يعلـم بذاك ضميـري

وقد شارك جميلا في هذا اللون من الغزل شعراء كثيرون ، منهم : قيس بـن الملوح المعروف بمجنون لـيلى ، وقـيس بـن ذريـح صـاحب لبنـى ، وكثـير صاحب عزة ، وتوبة بن الحمير صاحب ليلى الأخيلية .

على أن شعراء هذا اللـون الغـزلي كثـيرا مـا تتشـابه تجـاربهم العاطفيـة ، فتتوارد خواطرهم ، وتتلاقـى أفكـارهم ومعـانيهم ، فيقـع الخلـط في نسـبة الأشعار إليهم والانتحال أحيانا .

وتتميز أشعارهم بالسهولة والوضوح ، وقرب المعاني ، وهو ما يتناسـب وطبيعة هذا اللون مـن الغـزل ، ولا نجـد في أشـعارهم تكلفـا ولا مـيلا إلى استخدام المحسنات اللفظية أو البديعية إلا ما أتى عفو الخاطر غير متكلف ، ولا نلمس فيها غموضا ، ولا غوصا وراء المعـاني ، أو جريـا وراء التصـوير والخيال إلا في مواضع محددة تنبثق من واقع التجربة ، ولا تفتعل لإثرائها .

وتغلب على أشـعارهم المبـاشرة ، وسـهولة العبـارة ، وقربهـا مـن اللغـة الشعبية أحيانا، ونلمس في أشعار كثير منهم خيطا قصصيا .

وربما لعب الخيال دورًا كبيـرًا في نسج مغامراتهم وقصص حياتهم ، وربما صنع بعض الـرواة قصصـا لتفسـير بعـض أشـعارهم ، وقـد تتشـابه هـذه

القصص واقعا أو خيالا، فعلى شاكلة قصة جميل مع بثينة تقع أو تنسج قصة قيس بن الملوح مع صاحبته ليلى فهي ـ أيضا ـ من أبناء عمومته ، وقد تعلق بها قيس وهما صغيران يرعيان البهم كما تعلق جميل بصاحبته بثينة منذ نعومة أظفارهما ، وفي هذا يقول قيس [1]:

تعلقت ليلى وهي غرٌّ صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صبيان نرعى البهم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

واشتد حبه لها ، وهيامه وتغزله بها ، حتى فشا أمرهما ، فحجبها أبوها عنه ، فلما تقدم لخطبتها رفضه والدها للعادات والتقاليد التي حالت دون زواج جميل ببثينة ، وهو أنهم لا يزوجون بناتهم من يشبب بهن حتى لا يقال إنهم زوجوه درءًا للعار أو سترا للفضيحة ، ثم رفع والدها أمر قيس إلى السلطان الذي أهدر دمه إن هو تردد على دارها أو تعرض لها ، وهو عين ما فعله الوالي مع جميل حين شكاه أهل بثينة إليه .

وأياما كان الأمر في قصص هؤلاء العشاق ، وما نسب إليهم أو نسجه الخيال حول مغامراتهم العاطفية ، فإنهم قد أثروا المكتبة الأدبية بكم هائل من الأشعار الرقيقة المعبرة عن المشاعر الجياشة ، والحب العذري الخالص ، مع صدق التجربة ، ورقة العبارة .

---

(١) ديوانه ، صـ ٨ ، ط: الحلبي سنة ١٩٣٩ هـ .

" فقد استطاع الشاعر العذري أن يضفي على محبوبته شمائل تميزها عن سائر بنات جنسها ، فالمرأة عند الشاعر العذري مثال رائع ، لا تحده الأوهام ولا الظنون ، هي جنّية لبست ثياب المرأة لتخبله وتستبيه بلا ترفق ولا استبقاء ..

والحب العذري هو معركة عنيفة تقع في ميدانين : الأول ميدان الصراع بين الشاعر وهواه ، والثاني ميدان القتال بين الشاعر ومن يهواه ، وهو في الميدان الثاني لا يطارد فريسة تنال بأيسر الجهد ، وإنما يطارد ظبية عصماء لا تنال إلا باقتحام الأهوال فوق قمم الجبال ..

وهل كان يمكن أن يفتخر العذريون بالعفاف ـ وهو في عرف الفحول من الخيبة ـ لو لم يكن ذلك العفاف علامة قوة عارمة تمثل السيطرة على أهواء النفس ..

ذلك هو الحب العذري ، وأولئك هم المحبون العذريون ، وما أقول بأن أصحاب تلك العواطف كانوا على درجة واحدة من الطهر والسمو والعفاف ، ولكن من المؤكد أنهم أسهموا في إمداد الأدب العربي بصفة عامة وفن الغزل بصفة خاصة بشمائل رفيعة جعلت من شعرهم أغاريد يترنم بها العاشقون ، ويتناقلها الناس جيلا بعد جيل "[1].

---

(١) العشاق الثلاثة للدكتور / زكي مبارك ، صـ ٢٠ ـ ٢٥ بتصرف .

وهذا طرف من ترنيمات هؤلاء العاشقين :

يقول قيس بن الملوح [1]:

رعاة الليل ما فعل الصباح ... وما فعلت أوائله الملاح

وما بال الذين سبوا فؤادي ... أقاموا أم أجد بهم رواح

وما بال النجوم معلقات ... بقلب الصب ليس لها براح

كأن القلب ليلة قيل يغدي ... بليلي العامرية أو يراح

قطاة غرّها شرك فباتت ... تجاذ به وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بقفر ... وعشهما تصفقه الرياح

إذا سمعا هبوب الرياح هبا ... وقالا أمنا تأتي الرواح

فلا بالليل نالت ما ترجي ... ولا في الصبح كان له براح

رعاة الليل كونوا كيف شئتم ... فقد أودى بي الحب المتاح

فقلبه في خفقانه واضطرابه وحركته الدائبة القلقة المتوترة أشبه ما يكون بقطاة وقعت في شرك ، وعلق جناحها بخيوطه ، وزاد من قلقها واضطرابها وعنف حركتها ما خلفته وراءها ، وهما فرخان لها قد تركتهما بقفر في مهب الرياح وهما في انتظار عودتها ، ومع ذلك ما كان لها إلى السلامة سبيلا لا بالليل ولا بالنهار .

---

(١) ديوانه ، صـ ٨٢ .

ومن جيد شعره أيضا قوله [1] :

خليلي إن لا تبكياني ألتمس ... خليلا إذا أنزفت دمعي بكى ليا

فما أشرف الأبقاع إلا صبابة ... ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن ألا تلاقيا

لحا الله أقواما يقولون إننا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا

وعهدي بليلى وهي ذات مؤصد ... ترد علينا بالعشيّ المواشيا

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها ... وأعلاق ليلى في الفؤاد كما هيا

خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيري وابتلاني بحبها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

وخبرتماني أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمي بليلى المراميا

فلو أن واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها ... عليّ فلن تحموا عليّ القوافيا

فأشهد عند الله أني أحبها ... فهذا لها عندي فما عندها ليا

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق مني والغرام قضى ليا

وإن الذي أملت يا أم مالك ... أشاب فويدي واستهان فؤاديا

أعد الليالي ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا

---

(١) ديوانه ، مجنون ليلى ، صـ ٩٠ ، ٩١ .

وأخـرج مـن بـين البيـوت لعلنـي أحدث عنـك النفـس باللـيـل خاليـا
أرانـي إذا صليـت يمَّمْـت نحوهـا بوجهي وإن كـان المصلـى ورائيـا
ومـا بـي إشـراك ولكـن حبهـا وعظم الجـوى أعيا الطبيـب المداويـا
أحب من الأسمـاء مـا وافق اسمها أو اشبهـه أو كـان مـنه مدانيـا

. . . . . .

وإني لأستغشـى ومـا بـي نعسـة لعـل خيـالا منـك يلقـى خياليـا
هـي السحـر إلا أن للسحـر رقيـة وإني لا ألقـى لهـا الدهـر راقيـا
لئن ظعن الأحبـاب يـا أم مالـك فما ظعن الحـب الـذي فـي فؤاديـا
فيارب إذ صيـرت ليلـى هـي المنـى فَزِنِّـى بعينيهـا كمـا زِنتَهـا ليـا
وإلا فبغضهـا إلـيّ وأهلـهـا فإنـي بليلـى قـد لقيـت الدواهيـا
على مثل ليلى يقتـل المـرء نفسـه وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا
خليلـي إن ضنـوا بليلـى فقربـا لي النعـش والأكفان واستغفـرا ليا

ومع تدفق المعاني وعمق التجربة وصـدق الشـعور فيبـدو أن ألم الجـوى ومكابدة الشوق كانا فوق طاقته مما جعله ينفس عن هـذه اللوعـة بقولـه " وإلا فبغضها إليّ وأهلها " وإن كان الأولى به ألا يطلب تبغيضها إليـه ، بـل كان عليه أن يلح في طلب الرضا والنـوال ، ولكنـه اسـتدرك الأمـر في بيتـه الأخير حين قرر أن نسيانها أو تناسيها أمر غـير وارد ولا دواء لـه إلا نعشـه

وأكفانه . وإن كان الشاعر قد وقع كثيرا في الإيطاء ــ ومع أننا لا نلتمس الأعذار للشاعر، ونطلب إليه دائما مراعاة أصول الصنعة والالتزام بضوابطها اللغوية والإيقاعية ـ فإني أؤكد أن رقة العبارة وحلاوتها ، وتدفق المعاني ، واستغراق الشاعر في تجربته ، يكاد ينسى المتلقي هذه الهنات الإيقاعية .

الغزل الصريح :

وفارس هذا الميدان في العصر الأموي إنما هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وقد عرف عمر بغزله المكشوف وكثرة تعرضه للنساء حتى في الطواف والحج ، وقد لقيه عبد الملك بن مروان بالمدينة فقال له : يا فاسق أما إن قريشا لتعلم أنك أطولها صبوة وأبطؤها توبة ، ألست القائل [1]:

ولولا أن تعنفني قريش مقال الناصح الأدنى الشفيق

لقلت إذا التقينا قبليني ولو كنا على ظهر الطريق

ويصور عمر نفسه معشوقا تتهافت النساء على حبه ، وتتعرض له ، وتسعى في أثره وهو الذي يأبى ويترفع ، على شاكلة قوله :

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

---

(١) الشعر والشعراء ، ص ٣٧٣ .

وقوله :

قالت لتـرب لهـــــا تحدثهـا لنفسـدن الطـواف فـي عمـــر

قومـي تصـدي لـه ليعـرفنـــا ثم اغمزيه يـا أخـت فـي خفـر

قالـت لهـا قـد غمزتـه فأبـى ثم اسبطـرت تسعى علـى أثري

وقد شارك عمر بن أبي ربيعة في هذا الفن شعراء آخرون كالأحوص ، والعرجي، ووضاح اليمن ، فهم جميعا يطلبون المرأة ، ويلحون في طلبها ، ويلقون من حولها شباك الإغراء ، وقد يصورون مفاتنها أو ما ينالون منها ، ولا بأس أحيانا من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من ريبة ، أما عمر فقد تميز بتيهه وتصوير المرأة متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، كما طبع شعره بطابع قصصي أو حواري [1].

ويذهب وضاح اليمن [2] مذهب عمر بن أبي ربيعة في طابعه الحواري القصص ، وفي إظهار كلف النساء به ، واستجابتهن له وخوفهن عليه

---

(١) انظر العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ، ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٢) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبي جمد ، لقب بوضاح اليمن لجماله وبهائه ، ويذهب أكثر شعره في الغزل ، وبخاصة في صاحبتيه روضة وأم البنين ، وهو ممن يصرحون في الغزل ، ويمتاز شعره بالرقة والسهولة ، وكانت وفاته سنة ٩٠ هـ . (انظر في أخباره الأغاني ٦/ ٣٠ وفوات الوفيات ٢/ ٢٧٢ وحديث الأربعاء ١/ ٢٧٣ وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ١/ ٥٢٣).

أحيانا ، وصنع الحيلة للالتقاء به ، على نحو ما يصوره لنا في هذا الحوار الذي دار بينه وبين صاحبته روضة ، يقول [1]:

قالت : ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر

قلت : فإني طالب غرة ... منه وسيفي صارم باتر

قالت : فإن القصر من دوننا ... قلت : فإني فوقه ظاهر

قالت : فإن البحر من دوننا ... قلت : فإني سابح ماهر

قالت : فحولي إخوة سبعة ... قلت فإني غالب قاهر

قالت : فليث رابض بيننا ... قلت : فإني أسد عاقر

قالت : فإن الله من فوقنا ... قلت : فربي راحم غافر

قالت : لقد أعييتنا حجة ... فأت إذا ما هجع السامر [2]

فاسقط علينا كسقوط الندي ... ليلة لا ناه ولا زاجر

فصاحبة وضاح تقف منه موقف الناصح الشفيق ، وتنهاه عن الزيارة خوفا عليه من الصعاب التي تعترضه ، فهناك والدها الغائر ، وإخوتها السبعة ، والقصر والبحر، والليث الرابض ، والله من فوقهما ناظر ، ولكنه يقطع عليها كل هذه الحجج ، فهو شجاع يستطيع أن يحارب في كل الجبهات ، فوق الجدران ، وفي البحار ، وأمام الأسود ، أما ربه فغافر

---

(١) الأغاني ٦ / ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) هجع : نام ، السامر : الذي يسهر للمسامرة ، وهي حديث الليل .

راحـم[1]، وأمـام عزيمتـه وإصراه تجـد نفسـها مضـطرة أو منسـاقة نحـو الاستجابة له ، فتستسلم وتضـرب له موعدًا إذا ما هجع السامر .

بل إنه ليبدو أكثر صراحة حين يصور نفسه مطلوبـا عـلى غـرار مـا كـان يصنع عمر بن أبي ربيعة فيقول [2]:

قالت فزرنا قلـت كيـــف أزوركم وأنا امرؤ لخـروج ســـرك خاشـي
قالت فكن لعمومتي سلمـا معـــا والطف لإخوتـي الذيـن تمـــاشي
فتزورنـا معهـم زيـــارة آمـــــن والسر يـا وضاح ليـس بفاشـي

تطلب صاحبته زيارته ، فيتيه عليها ، ويتعلل بأنه يخشى أن يظهـر أمرهمـا وينكشـف سرهمـا ، فتغريـه بـأن يتلطـف لأعمامهـا وإخوتهـا حتـى تكـون الصداقة بينه وبينهم ، فيزورها معهـم زيـارة آمـن دون أن يـذاع لهـما سر أو ينكشف لهما أمر .

ويكشف وضاح عن صورة أخرى من غزله الماجن ، فيقول [3]:

ترجـــل وضـــاح وأسبـــل بعدما تكهل حينا في الكهـــول وما احتلـم
وعلـــق ببيضـــاء العـــوارض طفلة مخضبـــة الأطـراف طيبـــة النـسـم
إذا قلـــت يومـــا نولينـــي تبسمـــت وقالت معاذ الله من فعـل مـــا حرم

---

(١) في البيت الذي تضمن هذا المعنى مفاكهة شعرية ، ربما احتملها الشعر ، لكن الدين والخلق القويم لا يحتملان مثل هذا ولا يجيزانه .

(٢) الأغاني ٦ / ٣٩ .

(٣) الأغاني ٦ / ٣٨ ، ٣٩ .

فما نولت حتى تضـــرعت عندهـــا وأعلمتها ما رخص الله في اللمم[1]

فلما سمع محمد بن المنكدر البيت الأخير ضحك ، وقال : إن كان وضـاح إلا مفتيا لنفسه .

الغزل التقليدي :

وهذا الغزل لم يخل منه عصر مـن العصـور ، بـل إن ابـن قتيبـة ليؤكـد أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثـار، فبكـى وشـكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسـيب فشـكا شـدة الوجـد ، وألم الفـراق ، وفـرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ثـم ينتقـل إلى وصف رحلته أو ناقته ، ثم إلى غرضه [2].

---

(١) وهذه أيضا مفاكهة ، لكن بها مغالطة شرعية ، فأكثر أهل العلم باللغة على أن إلا في قوله تعـالى : " إلا اللمم " بمعنى الواو ، وعليه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

أي والفرقدان ، وعليه يكون المعنى : يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واللمم ، وعلى فرض أن اللمم معفو عنه ففعل وضاح ليس من اللمم ، إنما هي مفاكهة الشعراء أو خلاعة شاعر .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣١ .

ويرى أن الشاعر المجيد من سلك هذا السبيل فلم يعدل عنه [1]، ومع تأكيدنا على أن الشاعر لا ينبغي أن يوضع في قوالب أو أطر ثابتة ، وأنه حر في بناء قصيدة ، واختيار قالبها وإطارها ، مادام يعبر عن تجربة شعورية صادقة ، بل عليه ألا يفتعل الغزل أو بكاء الطلل إن لم يكن له إليه سبيل ، فإننا نؤكد أيضا أن نمط القصيدة الجاهلية الذي دعا إليه ابن قتيبة ومن تابعه من النقاد قد ظل مسيطرًا على عقلية كثير من الشعراء عبر عصور الأدب المختلفة ، حتى لو كان ذلك من قبيل إظهار القدرة على التصرف في شتى فنون الشعر.

وبما أن دولة بني أمية كانت عربية أعرابية تتعصب لتاريخها وتراثها فإن نمط القصيدة الجاهلية ظل مسيطرًا على شعر هذا العصر، فاستهل أكثر الشعراء قصائدهم بالغزل أو بكاء الطلل ، ومن ذلك قول جرير في مطلع قصيدة يهجو بها الأخطل وقومه بني تغلب [2] :

حيَّ الغداة برامة الأطلال رسما تقادم عهده فأحالا
إن الغوادي والسواري غادرت للريح مخترقا به ومجالا
أصبحت بعد جميع أهلك دمنة قفرًا وكنت محلة محلالا
لم يُلفَ مثلك بعد أهلك منزلا فسقيت من نوء السماء سجالا

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣١ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ، ص ٣٢٢ ، ط: دار صادر ، بيروت .

ولقد عجبت من الديـــار وأهلهـا والدهر، كيـــف يبـــدل الأبـدالا

ورأيتُ راحلة الصبـــا قد أقصرت بعد المذيل وملـت الترحـــالا[1]

إن الظعائـــن يوم برقـــــة عاقـل قد هجن ذا خبل فـزدن خبـــــالا

هام الفؤاد بذكرهن وقـد مضـــت بالليـــل أجنحـــة النجـــوم فمـــالا

فجعلـــن برقـــــة عاقـــل أيمانهـــا وجعلـــن أمعـــز رامتيـــن شمـالا

ياليت شعري يـــوم دارة صلصـــل أيـــردن قتلـــي أم يـــــردن دلالا

فلو أنّ عصـــم عمايتيـــن فيـــذبـــل سمعا حنينـــي أنـــزلا الأوعـالا

لا يتصلـــن إذا افتخـــرت بتغلـــب ولبسن زخـــرف زينـــــة وجمـــالا

وهي التي يقول فيها :

قبح الإله وجـــوه تغلـب إنهـــــا هانت علي معاطســـا وسبـــالا

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمـــد وبجبرائيـل وكذبـوا ميكـــــالا

لا تطلبـن خؤولـــــة فـــي تغلـب فالزنج أكـرم منهـم أخـــوالا

* * *

(١) الذميل : ضرب من السير سريع .

ازدهار فن النقائض في العصر الأموي

مفهوم النقيضة :

أ ـ لغة :

النقض في اللغة : الهدم ، يقال : نقض الشيء أي أفسده بعد إحكامه ، ونقض البناء : هدمه ، ونقض الحبل أو الغزل : حلّ طاقاته ، ونقض ما أبرمه فلان : أبطله، ويقال : ناقضني وناقضته : أي عمل على إبطال قولي ، وعملت على إبطال قوله ، والنقيضة جمعها نقائض ، ولذلك قالوا : نقائض جرير والفرزدق .

ب ـ اصطلاحًا :

هي القصيدة التي يعمد فيها الشاعر إلى معارضة قصيدة شاعر آخر ونقضها(١).

والفرق بينها وبين المعارضة ، أن المعارضة تقوم على محاكاة شاعر لآخر أو مجاراته مع اتفاق القصيدتين في الوزن والقافية والغرض الشعري ، والنقيضتان وإن اتفقتا في الوزن والقافية فإن إحداهما إنما تقوم على نقض الأخرى وهدم بنائها.

وقد تطورت الحياة العقلية والفكرية والاجتماعية في العصر الأموي تطورًا كبيرًا هيأ لازدهار هذا الفن ، وكان لتشجيع خلفاء بني أمية وولاتهم أثر واضح في أزهار هذا الفن .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : نقض ، والعصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

اجتمع جرير والفرزدق والأخطل في مجلس عبد الملك بن مروان ، فأحضر عبد الملك كيسا فيه خمسمائة دينار، وقال: ليقل كل منكم بيتا في مدح نفسه ، فأيكم غلب فله هذا الكيس ، فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فإن تك زق زاملة فإني أنا الطاعون ليس له دواء [1]

فقال جرير:

أنا الموت الذي آتى عليكم فليس لهارب مني نجاء

فقال عبد الملك لجرير : خذ الكيس ، فلعمري إن الموت ليأتي على كل شيء .

وفي محاولة الثأر لنفسه انتفض الفرزدق يومًا وأخذته الحمية في مجلس عبد الملك بن مروان ، فقال : النوار [2] طالق ثلاثا إن لم أقل شعرًا لا يستطيع هذا - وأشار إلى جرير- أن ينقضه أبدا ، لا يجد في الزيادة عليه مذهبا ، فقال عبد الملك : وما هو؟ فقال الفرزدق :

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله ؟

وما أَحَدُ يابن الأتان بوائل من الموت إن الموت لاشك نائله [3]

---

(١) الزق : السقاء أو الوعاء من الجلد ، الزاملة (مؤنث الزامل) : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها ، والمراد هنا: الناقة .

(٢) النوار : زوج الفرزدق .

(٣) بوائل : بناج .

فأطرق جرير قليلا ثم قال : أم حرزة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك : هات ، فو الله لقد طلق أحدكما لا محالة ، فأنشد جرير :

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس بكفيك يابن القين هل أنت نائله ؟
أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله ؟

فقال عبد الملك : فضلك ـ والله ـ يا أبا فراس وطلق عليك ، فبانت منه النوار ، وندم على طلاقها ندما شديدًا [1]، وفي ذلك يقول :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار[2]
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

فقد أراد الفرزدق التغلب على جرير من حيث انتصر جرير عليه وعلى الأخطل ، فشبه نفسه بالموت الذي ينال كل شيء ولا نجاة منه لأحد من الخلق ، لكن جرير قفز فوق ذلك ، فشبه نفسه بالدهر الذي يفني الموت [3].

---

(١) انظر : الأغاني ١٩ / ٣٢ .

(٢) الكسعي : أعرابي رمي بالقوس ليلا فظنها لم تصب ، فاغتاط وكسرها ، فلما أصبح وجدها قد أصابت ، فعض يديه ندما ، وقال :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذن لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي

(٣) انظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي لأستاذنا المرحوم أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

وحضر الفرزدق مجلس سليمان بن عبد الملك يوما ، فأتى لسليمان بـأسرى من الروم ، فقال للفرزدق : قم فاضرب أعناق هؤلاء ، فاستعفاه الفـرزدق من ذلك ، فلم يعفه ، ودفع إليه سيفا كليلا ، فقام الفرزدق فضرب بـه عنـق رجل منهم اسمه مربع، فنبا السيف بيده ، فضـحك سـليمان ومـن حولـه ، فقال الفرزدق :

ما يعجب الناس أن أضحكت خيرهم خليفـة الله يستقـي بـه المطـر
لم ينب سيفي من رعـب ولا دهـش عن الأسيـر ولكـن أخَّـر القـدر
ولم يقـدم نفسـا قـبـل ميتتهـا جمع اليدين ولا الصمصامـة الذكر

فعيره جرير بذلك حيث يقول :

بسيف أبي رغـوان قيـن مجاشـع ضربت ولم تضرب بسيف ابـن ظالم
ضربت به عنـد الإمام فأرعشـت يداك وقالوا محـدث غيـر صـارم

فأجابه الفرزدق بقوله :

ولا نقتل الأسرى ولكـن نفكهـم إذا أثقل الأعناق حمل المغـارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكـم أبا عن كليب أو أخا مثـل دارم

وقد احتدم الهجاء والمناقضة بين جرير والفـرزدق فـارسي الحلبـة في هـذا الفن ، وإلى جوارهما كان الأخطـل التغلبـي ، وقـد شـاركهم في هـذا الفـن شعراء آخـرون كـالراعي النمـيري ، والبعيـث المجاشـعي وعمـر بـن لجـأ التميمي وغيرهم ، لكن أكثرهم لم يثبـت أمـام فحولـة وعنفـوان جريـر أو

الفرزدق أو الأخطل ، ويقال : إن جريرًا وحده أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعرًا ، وقيل : بل نيفا وثمانين [1]، ومر الراعي النميري في سفر برجل يتغنى على قعود له بقول جرير :

وعاو عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما

خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هنداواني إذا هز صمما

فقال : لمن هذا الشعر؟ قيل : لجرير ، فقال : لعنة الله على من يلومني أن يغلبي مثل هذا [2].

وكان لهذه النقائض أثر واضح في ازدهار الحياة الأدبية والنقدية في العصر الأموي ، فإنها تقوم على مراجعة ما قيل من الشعر في معنى من المعاني ، ثم نقضه بشعر آخر أبلغ وأسير[3]، مما يجعل الشاعر يفكر وينقح كثيرًا قبل أن يخرج شعره إلى الناس ، لئلا يتعرض للقدح أو النقض .

وقد أكثر النقاد من الحديث حول هذه النقائض التي شغلت الحياة الأدبية في العصر الأموي ، وكانت أحد أهم أعمدتها الصلبة ، وكان الشعراء أنفسهم يشاركون في هذا النقد ، فكان جرير يقول : النصراني - يعني الأخطل التغلبي - أنعتنا للخمر والحُمْر وأمدحنا للملوك وأنا مدينة الشعر[4].

---

(١) انظر : العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ، ص ٢٤٤ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٣) انظر : محاضرات في النقد الأدبي لأستاذنا الدكتور/ محمد عرفة المغربي ، ص ٤٢ .

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣١١ .

وسئل الأخطل : أيكم أشعر ؟ فقال : أنـا أمـدحهم للملـوك ، وأنعـتهم للخمر والحمرــ يعني النساء ـــ وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا ، وأما الفرزدق فأفخرنا [1].

وسئل مسلمة بن عبد الملك : أي الشاعرين أفضل ؟ أجرير أم الفرزدق ؟ فقال: إن الفرزدق يبني وجرير يهدم ، وليس يقوم مع الهدم شيء [2] .

وسئل مروان بن أبي حفصة عن جرير والفرزدق فقال [3]:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو القريص ومـــــره لجريـــر

وطلب من الصلتان العبدي أن يحكم بينهما فقال [4]:

أنا الصلتانـــي الذي قــد علمتــم متى ما يحكَّم فهـو بالحـــق صـادع

أتتني تميم حــين هابــت قضاتهـــا وإني لبالفصل المبيّـــــن قاطـــــع

سأقضي قضاء بينهم غيـــــــر جائر فهـل أنت للحكـم المبيـن سامـــع

قضـــاء امـــرئ لا يتقي الشتم منهم وليـــس له في المـدح منهم منافـع

فـإن كنتمـــا حكمتمانـــي فأنصـتا ولا تجزعا ولـــيرضَ بالحـــق قانـع

فإن ترضيـا أو تجزعـــا لا أقلكمـــا وللحـــق بين النـاس راض وجازع

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣١١ .

(٢) الموشح للمرزباني ، ص ١٦١ .

(٣) الشعر والشعراء ، ص ٣١١ .

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، والصلتان العبدي شاعر أموي من عبد القيس اسمه قثم بن خبيئة .

فأقسم لا آلو عن الحق بينهم ... فإن أنا لم أعدل فقل أنت ضالع

فإن يك بحر الحنظليين واحدًا ... فما تستوي حيتانه والضفادع

وما يستوي صدر القناة وزجها ... وما يستوي شم الذرا والأكارع

وليس الذنابى كالقدامى وريشه ... وما تستوي في الكف منك الأصابع

ألا إنما تحظى كليب بشعرها ... وبالمجد تحظى دارم والأقارع

أرى الخطفي بذ الفرزدق شعره ... ولكن خيرًا من كليب مجاشع

فيا شاعرًا لا شاعر اليوم مثله ... جرير ولكن في كليب تواضع

جرير أشد الشاعرين شكيمة ... ولكن علته الباذخات الفوارع

ويرفع من شعر الفرزدق أنه ... له باذخ لذوي الخسيسة رافع

وقد يحمد السيف الددان بجفنه ... وتلقاه رثا غمده وهو قاطع [1]

يناشدني النصر الفرزدق بعدما ... ألحت عليه من جرير صواقع

فقلت له إني ونصرك كالذي ... يثبت أنفا كشمته الجوادع

وقالت كليب قد شرقنا عليكم ... فقلت لها سدت عليك المطالع

فالصلتان العبدي تنازعه عاملان : عامل التبريز في الشعر الذي يعطفه على جرير ويصده عن الفرزدق ، وعامل الجاه الاجتماعي الذي يرفع من شعر الفرزدق ويقصي جريرًا .

---

(١) السيف الددان : الكل الذي لا يقطع .

أو قل : إن جريرًا نال مكانة اجتماعية بشعره في حين ارتفع شأن الفـرزدق في الشعر بمكانته الاجتماعية [١].

غير أن هذا الحكم لم يرق لجرير ، فقال للصلتان [٢]:

أقول ولم أملـــك سوابــق عبـرة متى كان حكم الله في كرب النخل

وقد أثمر التفنن في هذه النقائض أبياتا وأشعارًا من أروع ما قيل في الفخـر، وأقذع ما قيل في الهجاء ، فيرى بعض النقاد أن أفخر بيت قالته العرب قـول جرير [٣]:

إذ غضبت عليك بنـــو تميـــم حسبت الناس كلهـــم غضابـــا

وقال بعضهم : قول الفرزدق [٤]:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ومن جيد الفخر قول الفرزدق في إحدى نقائضه :

إن الذي سـمك السـماء بنـى لنـا بيتـا دعائمـه أعـز وأطـول

حلـل الملـوك لباسـنا في أهلنـا والسابغات إلى الوغى نتسـربل

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة وتخالنـا جنـا إذا مـا نجهـل

---

(١) انظر : اتجاهات النقد الأدبي العربي لأستاذنا المرحوم أ د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٩٨ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣٣٩ .

(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ص ٧٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

فادفع بكفك إن أردت بناءنـــا ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحـل

أما الهجاء فقد أنتجت النقائض أقذع ما جاء فيه ، فقد سأل عبد الملك بن مروان جلساءه : هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعر ودوا لو أنهـم افتـدوا منه بأموالهم ؟ فقال هانئ بن قبيصة أولئك نحن يا أمير المؤمنين ، قـال : فـما قيل فيكم ؟ قال : قول جرير[1]:

فغض الطـرف إنك من نمـــير فلا كعبـا بلغت ولا كلابـــا

وذكر أن جريرًا لما قال :

والتغلبي إذا تنحنح للقـــرى حك استه وتمثـــل الأمثـــالا

قال : قد قلت فيهم بيتا لو طعن أحدهم في استه لم يحكها [2]

وقيل إن أهجى ما قالته العرب قول الفرزدق [3]:

ولو ترمى بلـؤم بني كليـــب نجوم الليل ما وضحت لسـاري

ولو لبس النهار بنـو كليـــب لدنس لؤمهـم وضح النهـــار

وما يغـدو عزيز بني كليـب ليطلـب حاجـة إلا بجـــار

وقيل إن أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير :

ما زال فينا رباط الخيل معلمـة وفي كليب ربـاط اللـؤم والعـار

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧١ ، وانظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٣٣٢ .

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهـــم بولي على النـــار

قال بنو تميم : ما هجينا بشيء هو أشد علينا من هذا البيت .

ومن جيد هذه النقائص قصيدة الفرزدق التي افتتح بهـا صـاحب جمهـرة أشعار العرب ملحماته السبع ، وفيهـا يقول الفرزدق [1]:

فإنـك إن تسعـى لتـدرك دارمًـــا لأنـت المُعَنَّى يا جريـر المكلـــف

أتطلب من عند النجـوم وفوقهـــا بربـق وعيـر ظهـــره يتقـــرف

عطفت عليك الحرب إنـي إذا ونـى أخو الحرب كرار على القرن معطـف

أبي لجريـر رهـط ســـوء أذلـــة وعـرض لئيم للمخـــازي موقف

وجدت الثرى فينا إذا التمس الثرى ومن هو يرجـو فضـلة المتضيـــف

ويمنـع مولانـــا وإن كـان نائيـا بنـا داره ممـا يخـاف ويأنـــف

ترى جارنـا فينـا يجـير وإن جـنى ولا هو مما ينطـف الجـار ينطـف

وكنا إذا نامت قريـش عـن القـرى إلى الضيف نمشي مسرعين ونلحف

وجدنا أعز النـاس أكثرهم حصـى وأكرمهـم مـن بالمكـارم يعـرف

وكلتاهما فينـا لنـا حيـن تلتـقي عصائـب لاقى بينهـن المعـرف

منازيل عن ظهـر الكثير قليلنـا إذا ما دعا ذو الثـورة المرتـدف[2]

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ص ٣١٨ .

(٢) الثؤرة : العداوة ، المرتدف : المترادف الكثير .

قلفنا الحصى عنه الذي فوق ظهره بأحلام جهال إذا ما تغضفوا[1]

وجهل بحلم قد دفعنا جنونه وما كاد لولا عزنا يتزحلف[2]

فما أحد في الناس يعدل دارما بعز ، ولا عز له حين يخنف[3]

* * *

(١) قلقنا : ألقينا ، بأحلام جهال : بعقول عقلاء يجهلون إذا جهل عليهم ، تغضفوا : مالوا عليه بالنظر .

(٢) يتزحلف : يتباعد .

(٣) يخنف : يشمخ بأنفه كبرًا .

الشعوبية
بين جذورها الأموية وحدتها العباسية

الشعوبية : مأخوذة من الشعوب جمع شعب ، والشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، ثم غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي [1].

ويعرف بعض اللغويين الشعوبية بأنها نزعة أعجمية في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم ، وتحاول الحط منهم [2].

وأرى أن قولهم " في العصر العباسي " قيد في غير موضعه ، لأن النزعة الشعوبية وإن بدت بارزة واضحة في العصر العباسي فإنها لم تكن وليدة هذا العصر ، فقد كان الموالي الشعوبيون في صراع مع الأمويين ، ولا سيما الموالي الفرس الذين كانوا ينضمون إلى كل ثائر يهب في وجه الدولة الأموية ، محاولين إضعاف السيادة العربية ، والعمل على استرداد ملكهم السليب .

فالأولى أن تعرف الشعوبية بأنها نزعة أعجمية تنكر تفضيل العرب على غيرهم ، وتعمل على النيل منهم أو الحط من شأنهم دون ذكر للقيد السابق .

وتطلق الشعوبية على أصحاب هذه النزعة ، وهم " قوم متعصبون على

---

(١) لسان العرب ، مادة : شعب .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة : شعب .

العرب لا يرون لهم فضلا على غيرهم من الأمم ، إن لم يكونوا أقل منهم شأنا ومنزلة [1].

وقد بدأ رواد الشعوبية دعوتهم مستندين إلى تعاليم الإسلام يدعون إلى المساواة التي نادى بها الإسلام ، فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " [2].

ثم تدرجوا في دعوتهم حتى دعوا إلى تحقير العرب والحط من شأنهم وتفضيل غيرهم عليهم ، وأخذوا يفاخرون بمالهم من حضارة زاهية وملك عريض .

وقد جهر بعضهم بشعوبيته في غير مداراة أو مواربة ، وعرفت بعض الأسر بتعصبها الشديد للفرس ، كأسرة يسار النسائي ، ومنها ابنه إسماعيل بن يسار [3] الذي علا صوته الشعوبي حتى في حضرة الخلفاء الأمويين

---

(١) انظر : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري د/ محمد نبيه حجاب صـ٢ ط نهضة مصر سنة ١٩٩٦م .

(٢) الحجرات : جزء من الآية (١٣) .

(٣) هو إسماعيل بن يسار النسائي مولى بني التيم من قريش ، كان منقطعا لآل الزبير ، فلما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان تحول إلى بني أمية ، لكنه كان شعوبيا متعصبا لشعوبيته ؛ مما جعل هشام بن عبد الملك ينكل به وينفيه إلى الحجاز .انظر في أخباره : الأغاني ٤ / ١١٨ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ٢٣٩ ، وشعراء فرس في أدب العرب د/ يوسف حسين يسار ، ص ١٦٦ ، وتاريخ الأدب العربي لجرجي زيدان ١ / ٢٧٩ ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ١/ ٦٤٣ .

المتعصبين لعروبتهم ، فقد دخل إسماعيل بن يسار يوما على هشام بن عبد الملك ، فاستنشده هشام ، وهو يرى أنه سينشده مديحا ، لكنه أنشده قوله مفتخرا [1]:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم [2]

أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قوم بتاج الملك معموم

جحاجح سادة بلج مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم [3]

من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتغطيم

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم

يمشون في حلق الماذي سابغة ... مشى الضراغمة الأسد اللهاميم [4]

هناك إن تسألي تنبي بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم [5]

---

(١) الأغاني ٤ / ١٢٤ .

(٢) في البيت إما أن يقع الشاعر في الإقواء أو الخطأ اللغوي ، لأن القافية مجرورة ، ولا وجه لجر كلمة " مسموم " لأن المعرفة لا توصف بالنكرة ، فإما أن ترفع على أنها صفة للسان أو تنصب على أنها حال من حد السيف .

(٣) الجحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد السمح الكريم ، المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس الفرس، جرد : جمع أجرد ، يقال : فرس أجرد أي سباق ، عتاق كرماء نجباء ، والمراد وصفهم بأنهم سادة سباقون كرماء نجباء .

(٤) الهرمزان : الكبير من ملوك العجم .

(٥) تنبي : تخبر ، الجرثومة : الأصل .

فلما انتهى من إنشاده قال له هشام : أعلي تفخر وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ، وأمر هشام بإخراجه ، ونفاه من وقته إلى الحجاز[1].

ولم يقف الأمر بإسماعيل بن يسار عند هذا الحد ، بل إنه أخذ يمزج فخره بتهجم صريح على العرب ، حيث يقول [2]:

رب خال متوج لي وعم ماجد مجتدى كريم النصاب[3]
إنما سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسون سفاها بناتكم في التراب

فابن يسار يفخر بأخواله وأعمامه أصحاب التيجان ، كرام الأصول ، ويرى أنهم سموا بالفرس مضاهاة لرفعة أنسابهم، ويطلب من العرب الرجوع إلى التاريخ والاحتكام إليه أو النظر فيه للمقارنة بين ما كان عليه حال العرب وحال الفرس ، حيث كان الفرس أرباب حضارة ومدنية يربون بناتهم ولا يئدونهن ، في حين كان العرب بدوًا رعاة يئدون بناتهم في التراب سفها وجهلا .

---

(١) الأغاني ٤/ ١٢٤ ، وتاريخ الشعر السياسي للأستاذ/ أحمد الشايب ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ٤/ ١١٩ .

(٣) كريم النصاب : كريم الأصل .

وكان إبراهيم بن يسار أخو إسماعيل شعوبيا مبتلى بالعصبية للفرس مثل إسماعيل ، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن له قصيدة طويلة في الافتخار بالعجم [١]، غير أني لم أعثر عليها في أيّ من المصادر الأدبية التي راجعتها ، ولعلها ضاعت فيما ضاع عبر الزمن .

ويبدو أن أسرة يسار النسائي كانت قد اشتهرت بنزعتها الشعوبية وعصبيتها الفارسية مما جعل بعض الرواة ينسبون إلى أحد أبنائها ما ليس له سهوًا أو خلطا أو نحلا ، فإلى محمد بن إسماعيل بن يسار ينسب [٢]:

راح الشقي على ربع يسائله ... ورحت أسأل عن خمارة البلد

تبكي على طلل الماضين من أسد ... فتكت أمك قل لي من بنو أسد

ومن تميمُ ومن عُكلٌ ومن يَمنٌ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

وهذه الأبيات مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ رويت في أكثر من مصدر لأبي نواس ، وهي في ديوانه [٣].

وكان يزيد بن ضبة مولي ثقيف[٤] منقطعا إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

(١) الأغاني ٤ / ١٢٦ .

(٢) انظر : معجم الشعراء للمرزباني ، ص ٤١٤ .

(٣) انظر : ديوان أبي نواس ، ص ٤٦ تحقيق : الأستاذ / أحمد عبد المجيد الغزالي ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

(٤) هو يزيد بن مقسم مولى ثقيف ، وضبة أمه ، وقد غلبت على نسبه لأن أباه مات وخلفه صغيرا ، فاحتضنته أمه ، فنسب إليها ، وهو شاعر مكثر ، كان يطلب القوافي المعتاصة ، والحوشي من الشعر ، وله شعر في الطرد يكثر فيه الغريب ، وتوفي نحو سنة ١٣٠ هـ بالطائف . (انظر==

يمدحه في حياة أبيه يزيد ، وكان هشام بن عبد الملك ينقم عليه انقطاعه إلى الوليد ، فلما آلت الخلافة إلى هشام دخل عليه يزيد واستأذنه في الإنشاد فلم يأذن له ، وأمر بإخراجه ، فقال يزيد قصيدة يعتب فيها على هشام ، ثم تعدى حدود العتاب إلى التعريض بهشام والفخر بقومه من الفرس ، ومطلعها [1]:

أرى سلمى تصد وما صددنا ... وغير صدودها كنا أردنا

لقد بخلت بنائلها علينا ... ولو جادت بنائلها لجدنا

وفيها يقول [2]:

إذا هاب الكريهة من يليها ... وأعظمها الهيوب لها عمدنا [3]

وجبار تركناه كليلا ... وقائد فتنة باغ أزلنا [4]

فلا تنسوا مواطننا فإنا ... إذا ما عاد أهل الجرم عدنا

وما هيضت مكاسر من جبرنا ... ولا جبرت مصيبة من هددنا [5]

وقد كان الملوك يرون حقا ... لوافدنا فنكرم إن وفدنا

== في أخباره : الأغاني ٦ / ١٤١ ، ومن نسب على أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ص ٣١١) .

(١) الأغاني ٦ / ١٤١ .

(٢) السابق ٦ / ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) الكريهة : الحرب ، الهيوب : الجبان الخائف .

(٤) كليلا : ضعيفا عاجزًا .

(٥) هيضت : كسرت ، ويقال : ماضي العظم إذا كسره بعد الجبر أو بعدما كاد ينجبر .

ولينـــا النـــاس أزمانـــا طـــوالا وسسناهم ودسناهـــم وقدنـا[1]

ألم تـــرمن ولـــدنا كيـــف أشـــبي وأشبينا وما بهـــم قـــعـــدنـا[2]

نكـــون لمـــن ولدنـــاه سمـــــاء إذا شيمـــت مخايلنـــا رعدنـا[3]

ونكـــوى بالعـــداوة مـــن بغانـــا ونســـعد بـــالمودة مـــن وددنـــا

ومـــا نعتـــد دون المجـــد مـــالا إذا يغـــلى بمكرمـــة أفـــدنا

وأتلـد مجـدنـــا أنـــا كـــرام بحـــد المشـــرفية عنـــه زدنـــا

فابن ضبة يفخر بأنه من قوم شجعان لا يهابون الحرب الضـروس التـي يعظمها الهـيوب ويحجم عنها الأبطال ، فكم من جبار تركوه ذلـيلا ، وكـم من قائد فتنة طاغ أذلوه وأزالوا طغيانه ، من نصروه فلا يستطيع أحـد النيـل منه ، ومن طلبوه فلا يقوى أحـد عـلى منعـه أو نصـره ، وقـد كـان الملـوك يعرفون لهم أقدارهم ، فيكرمون وافدهم .

وإنهم لأهل ملك وسيادة ، فقد ساسوا الناس وسـادوهم ، بـاللين تـارة ، وبالقوة أخرى ، فمن عاداهم اكتوى بنار عداوتهم ، ومن أخلص لهم المـودة أسعد بمودتهم ، فهم قوم كرام ، لهم مجد تليد يزودون عنـه بسـيوفهم ، بـل يبذلون في سبيل الحفاظ عليه أنفس ما يملكون .

---

(١) سسناهم : حكمناهم باللين دسناهم : حكمناهم بالقوة .

(٢) أشبي : أشبل ، وولد له ولد كيّس .

(٣) شيمت : الشيم النظر إلى الشيء في تطلع وانتظار ، المخايل : جمع مخيل ومخيلة ، والمخيلة: السحابة التي إذا رأيتها حسبتها ماطرة .

وقد أخذت هذه النزعة الفارسية تعلو وترتفع حتى رأينا بعض الشعراء كابن ميادة [1] يحاول أن يدعي لنفسه نسبا فارسيا ، ولو من جهة أمه ، يقول[2]:

أنا ابن أبي سلمي وجدي ظالم وأمي حصان أخلصتها الأعاجم

أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمائم

مع أن الراجح أن أمه صقلية ، ولعل في هذا ما يدل على المدى الذي وصلت إليه النزعة الفارسية حتى أصبح بعض الناس يرون أن الانتساب إلى الفرس يعد مكرمة وفخرا في المجتمع العربي .

ولكن العرب لم يكونوا ليصمتوا إزاء هذا التباهي السافر والعصبية الحمقاء للفرس، فقد أدركوا مرامي هذه النزعة ، وفطنوا إلى أن الفرس يحاولون بشتى السبل استرداد ملكهم واستعادة مجدهم ، فهذا نصر بن يسار يخاطب عرب خراسان، ويحثهم على ترك الخلاف والفرقة والتناحر فيما بينهم ، وجمع الكلمة في مواجهة أعدائهم المتربصين بهم ، فيقول[3]:

---

(١) هو الرّماح بن يزيد من بني ظالم بن أبي الحارث بن ظالم المريّ ، وميادة أمه ، وكانت أم ولد ، وإليها ينسب ، وكان شاعرًا هجاء ، وكان يضرب جنبي أمه ويقول لها : " اغْرَنْزِمي ميّاد للقوافي" (انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٥٢٣).

(٢) شعر ابن ميادة ، ص ١٩ ، وانظر الأغاني ٢ / ٨٥ .

(٣) العقد الفريد ٤/ ٤٧٨ ، ٤٧٩، وانظر: ضحى الإسلام ١/ ٣١ ، وأدب السياسة للحوفي ، ص ٤٨٢ .

أبلغ ربيعـــــة فـي مـرو وإخوتهـم فليغضبوا قبل ألا ينفـع الغضـب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبـوا حربا يحرق فـي حافاتهـا الحطـب
ما بالكم تلقحـون الحـرب بينكـم كأن أهل الحجا عـن رأيكـم غيب
وتتركـون عـدوا قـد أظلكـم ممن تأشب لا ديـن ولا حسـب[1]
قدمًا يدينـون دينا مـا سمعـت بـه عن الرسول ولم تنـزل بـه الكتـب
فمن يكن سائلا عـن أصل دينهـم فـإن دينهم أن تقـتل العـرب

وحاولت عرب خراسان أن تتوادع على وضع الحـرب بينهـا ، والاجـتماع على قتال أبي مسلم الخراساني ، ولكنه احتال وأفسد ما بيـنهم حتـى بلـغ مـا أراد [2] .

وإذا كان شعراء الفرس قد فاخروا العرب في العصر الأمـوي ، وجهـروا لهم بالقول دون خجل أو مواربة ، فإن صوت الشعراء السود لم يكن أخفت من صوتهم، فقد تعالت الصيحات الشعوبية السوداء ، ويطالعنا الجاحظ في رسائله بثلاثة مـن الشـعراء السـود الشـعوبيين الـذين دافعـوا عـن السـود والسواد بعنف وغضب شديدين ، وهم : الحيقطان ، وسنيح ، وعكيم [3].

---

(١) التأشب: التجمع من هنا وهناك ، والأشابة : الأخلاط من الناس تجتمع من كل صوب .

(٢) انظر: تاريخ الشعر السياسي للأستاذ/ أحمد الشايب ، ص ٢٧٢ .

(٣) انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٨٢ ، ١٩٠ ، ١٩٩ .

أما الحيقطان [1] فكان عبدًا أسودًا رآه جرير بن عطية بن الخطفي يلبس في يوم عيد قميصا أبيض على جسده الأسود ، فتهكم به قائلا :

كأنه لما بدا للناس أير حمار لفّ في قرطاس

ولما كان هذا البيت العابث في تواتر من فم إلى فم مما سبب للحيقطان حرجا شديدًا جعله يغضب ويدخل منزله ، ثم يرد بقصيدة يثأر فيها لنفسه ولبني جلدته ، وينال من جرير وقومه ، فيقول [2]:

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم فإني لسبط الكف والعرض أزهر [3]

وإن سواد اللون ليس بضائري إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

فإن كنت تبغي الفخر في غير كنهه فرهط النجاشي منك في الناس أفخر

تأبى الجلندي وابن كسرى وحارث وهوذة والقبطي والشيخ قيصر [4]

---

(١) الحيقطان : عبد أسود ، وقد غلب عليه هذا اللقب ، فلم تفصح المصادر عن شيء أكثر من هذا في اسمه ونسبه ، وكان خطيبا لا يبارى وله صوت شعوبي قوي . انظر : البيان والتبيين ١/ ١٣٠ تحقيق : عبد السلام هارون ، ط: دار الجيل ، ودار الفكر ، ورسائل الجاحظ ١ / ١٨٢، وظهر الإسلام لأحمد أمين ١ / ٧٢ .

(٢) رسائل الجاحظ ، ص ١٨٣ .

(٣) أزهر : نقي أبيض .

(٤) الجلندي : يريد ابنيه جيفر وعبد ، يقول : إنهما تأبيا على الإسلام ، وهذا ادعاء غير صحيح ، لأنهما أسلما طوعا حين بعث إليهما الرسول ﷺ كتابه مع عمرو بن العاص ، وكسرى : هو كسرى عظيم الفرس ، والحارث : هو الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهوذة : هو هوذة بن علي الحنفي ، القبطي : يريد به المقوقس عظيم مصر ، وقيصر عظيم الروم انظر في رسائل النبي ﷺ إلى هؤلاء ، وموقفهم من هذه الرسائل : زاد المعاد لابن القيم ٣ / ٦١ ، الرسائل النبوية د/ علي السبكي ، ص ١٤٥ وما بعدها .

وفـــاز بهـا دون الملـوك سعـــــــادة فـــدام لـــه الملـــك المنيـــع الموفـــر
ولقمـان منهـم وابنـــه وابـــن أمـــه وأبرهـة الملـك الـذي ليـــس ينكـر
غزاكم أبو يكســـوم فـي أم داركـــم وأنتم كقبـض الرمـل أو هـو أكثـر
وأنتم كطير الماء لما هـوى لهـــــا ببلقعة حجـــن المخالـــب أكـدر[1]
فلـــو كـــان غيـــر الله رام دفاعـــه علمت وذو التجريب بالناس أخبر
ومـا الفخـــر إلا أن تبيتـــوا إزاءه وأنـتم قريـب ناركـم تتسعـــــــر
ويدلف منكـــم قائـــد ذو حفيظـــة نكافحـه طـــورا وطـــورا يدبـــر
فأمـــا التـــي قلتـــم فتلكـــم نبـــوة وليس بكم صون الحـرام المسـتر[2]
وقلتـم لقـــاح لا نـــؤدي إتـــاوة فإعطاء أريان مـن الفـــر أيســـر[3]
ولو كـان فيهـا رغبـة لمتـــــــوج إذا لأتتهـا بالمـقـــاول حمـيـــر[4]
وليس بهـــا مشتـــى ولا متصـــيف ولا كجؤاثـــا ماؤهـــا يتفجـــر[5]
ولا مرتـــع للعيـــــن أو متقنـــص ولكـــن تجـــرًا والتجـــارة تحقـــر

فبعد أن اعتذر الحيقطان عن سواده ودافـع عنـه بأنـه لا يعـد عيبـا مـادام صاحبه نقي العرض طاهر الكف شجاع القلب ، خطارا بسيفه في سـاحات القتال ، إنما العيب فيمن حسن مظهره وساء مخبره ، ثـم انتحـى عـلى جريـر

---

(١) البلقعة : الأرض القفر التي لا شيء فيها . حجن : جمع أحجن وهو المعوج .

(٢) صون : لغة في صين .

(٣) اللقاح : الذين لا يدفعون إتاوة للملوك ، الأريان : الإتاوة أو الخراج .

(٤) المقاول : جمع مقول ، وهو الملك من ملوك حمير .

(٥) جؤاثا ، ويقال : جؤاثاء : موضع بالبحرين .

فرماه بالدناءة وهوان الشأن " لكم في سمان الضأن عار ومفخر" فأما العار فما كان يرمي به بنو كليب من إتيان الضأن ، وكذلك بنو الأعرج وسليم ، وفي هذا يقول الفرزدق :

ولست مضحيا ما دمت حيًّا بشاة من حلوبة أعرجي

فما أدري إذا أنفقت مالي لعل الشاة تبقر عن صبي

وأما المفخر فإنه يريد أن يقول : إنهم إذا فخروا فخروا بالشاة ، ولا يبلغون حد الإبل[1].

ثم يعرض الحيقطان بحسم للأحباش والعرب ، فيعطي الأحباش كل مكرمة ، ويحاول سلب العرب مكارمهم وتعريتهم منها ، ورميهم بالضعف والهوان ، بل إنه ليسخر من مكة التي لا يرى فيها مشتى ولا متصيفا ، ويسخر عن أهلها الذين فروا وعجزوا عن الدفاع عنها يوم أن غزاها أبرهة، ويذكر أن حياة أهلها إنما تقوم على التجارة وهو أمر محتقر ، ويذكر بهؤلاء الذين تأبوا على الدخول في الإسلام يوم أن أتتهم رسائل النبي ﷺ ، ويذكر عددًا من زعماء السود وحكمائهم في معرض الخيلاء والزهو بهم ، وهو في ذلك كله يرفع راية السود عالية ، ويلوح بها في غطرسة وحنق واستعلاء ، وتعد هذه القصيدة من أولى القصائد التي جهرت للعرب

---

(١) انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٩٠ .

بالقول وأكدت روح تلك القوة السوداء التي لم تعد تطيق الصمت ، ولا مجرد الاعتذار عن السواد[١].

أما سنيح [٢] فقد تفجر غضبه حين توجهت الإساءة إلى بني جلدته من الزنج حين هجا جرير بني تغلب بقوله :

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

فقال سنيح يرد على جرير ، ويشيد بأمجاد قومه من الزنج [٣]:

ما بال كلب بني كليب سبنا أن لم يوازن حاجبا وعقالا[٤]

والزنج لو لاقيتهم في صفهم لاقيت ثم جحاجحا أبطالا[٥]

فسل ابن عمرو حين رام نزالهم أرأي رماح الزنج ثم طوالا

فجعوا زيادا بابنه وتنازلوا لما دعوا لنزال ثم نزالا

ومربطين خيولهم بفنائهم وربطت حولك شيها وسخالا[٦]

---

(١) انظر : الشعراء السود د/ عبده بدوي ، ص ١٥٣ .

(٢) هو سنيح بن رباح شار الزنجي مولى بني ناجية ، شاعر أموي أسود زنجي. انظر : الكامل للمبرد ٢ / ٨ ، والحيوان للجاحظ ١ / ٢٧٠ ، ورسائل الجاحظ ١/ ١٩٠ .

(٣) رسائل الجاحظ ١ / ١٩٠ .

(٤) حاجب : هو حاجب بن زرارة من رهط الفرزدق وكثيرا ما افتخر به الفرزدق ، وعقال : أحد أجداد الفرزدق .

(٥) جحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد السمح الكريم .

(٦) السخال : الصغار من الغنم والمعز ، وقيل : ولد الضأن والمعز حين يولد .

كان ابن ندبة فيكم من نجلنا وخفاف المتحمل الأثقالا[1]

وابنا زبيبة عنتر وهراسة ما إن ترى فيكم لهم أمثالا [2]

وسل ابن جيفر حين رام بلادنا فرأى بغزوتهم عليه خبالا [3]

وسليك الليث الهزبر إذا عدا والقرم عباس علوك فعالا [4]

[4]

هذا ابن خازم بن عجلي منهم غلب القبائل نجدة ونوالا[5]

ونوالا[5]

أبناء كل نجيبة لنجيبة أسد تربب عندها الأشبالا

فلنحن أنجب من كليب خؤولة ولأنت ألأم منهم أخوالا

وبنو الحباب مطاعن ومطاعم عند الشتاء إذا تهب شمالا

---

(١) ابن ندبة : هو خفاف بن ندبة شاعر من أغربة العرب : انظر في ترجمته : الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٤٢ .

(٢) ابنا زبيبة : هما عنترة بن شداد وأخوه هراس .

(٣) ابن جيفر : هو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندي ، وكان قد غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره .

(٤) سليك : هو سليك بن السلكة وكان من أغربة العرب ، وعباس : هو عباس بن مرداس السلمي، وقد اختلف في سواده .

(٥) ابن خازم : هو عبد الله بن خازم السلمي ، وكانت لبني خازم آثار بخراسان . انظر رسائل الجاحظ ١ / ١٩٢ ، وجمهرة الأنساب لابن حزم ، ص ٢٦٢ .

ونلاحظ أن سنيح بن رباح لم يغضب لهجاء شخصي على نحو ما كان من الحيقطان، إنما غضب لقومه وبني جلدته من الزنج حين هجاهم جرير ، فانتصر لهم، وذكر مآثرهم ، والمواقع والأيام التي كانت لهم على العرب ، وعد بعض رجالهم، وذكر أنهم أهل حرب وقتال يربطون خيولهم في أفنيتهم ، في حين يربط جرير وقومه حول ديارهم الشياه والسخال .

وفي معرض الفخر بالسود ذكر سنيح عددًا من السود الخالصي السواد من العرب، ثم ذكر أبناء السوداوات اللاتي سماهن نجيبات لينال من العرب الذين يسمون حرائرهم نجيبات ، ثم ذكر أن خؤولته أكرم وأنجب من خؤولة كليب [1] .

وأما عكيم [2] فقد انبرى للدفاع عن قومه والتهكم بالعرب ، وذلك عندما عرض بهم حكيم بن عياش الكلبي حين هجا بني أسد [3] :

لا تفخرن بخال من بني أسد فإن أكرم منها الزنج والنوب

فقال عكيم :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا ويوم يثرب كنا فحلة العرب[4]

---

(١) انظر: الشعراء السود د/ عبده بدوي ، ص ١٥٥ .

(٢) هو عكيم الحبشي ، لم تفصح المصادر عن شيء أكثر من اسمه ونسبته إلى أهل الحبشة وأنه كان أفصح من العجاج ، وأن أهل الشام كانوا يأخذون عنه كما أخذ أهل العراق عن المنتجع بن نبهان.

انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٩٨ والشعراء السود د/ عبده بدوي ، ص ١٥٦ .

(٣) رسائل الجاحظ ١ / ١٩٩ .

وليلة الفيـــل إذ طـــارت قلوبهـــم وكلهم هارب مـــوف علـى قتـــب
منا النجاشي وذو العقصين صهركـم وجد أبرهة الحامي أبـــي طلـب[1]
هبني غفـرت لعدنـان تهكمهـــــــم فما لحمير والمقوال فـي النســـب[2]
حمارة جمعت مـن كـل محريـــــــة جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب[3]

وهكذا ارتفعت أصوات الشعراء السـود والزنـوج ، وعلـت صـيحاتهم ، وأخذوا يثأرون لأنفسهم ولبني جلدتهم ، وقد قالوا ما قالوا بقـوة وعنـف ، ولم تكن عصبيتهم لجنسهم أقل من عصـبية الشـعراء الفـرس ـ في العصـر الأموي ـ لجنسهم .

ولكن صوت الشعراء السود وهن بعد ذلك لأسباب أهمها :

أن السود لم يكن لهم دور كالفرس في المجتمع الجديد ، ولأن الفتوحات لم توجه إليهم ـ مثلما توجهت إلى الفرس والروم ـ ثم إنهم حوصـروا في المجتمع الجديد في وظائف معينة ، وأنهم بعد انفجارهم فيما عرف بثورة

---

(٤) غمدان حصن من حصون اليمن كانت تنزله ملوكهم ، فلما ملكت الحبشة خربته إلا بقايا هدمها عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، ويوم يثرب يعني به موقعة الحرة حين استباح مسرف بـن عقبـة المري المدينة ، زعموا أنه كان هناك أمر قبيح من السودان .

(١) ذو العقصين يعني به الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين ، كان له في رأسه شبه قرنين ، والعقص : ضرب من ضفر الشعر ، وكان الروم أصهارا للعرب ، وهذا ما يعنيه بقوله : "صهركم" .

(٢) المقوال : المراد به الملك من ملوك حمير .

(٣) محرية : المراد من كل جانب وناحية ، وأصلها من الحرا بمعنى الجانب أو الناحية .

الزنج رضوا بأن يتصالحوا ـ على مضض ـ مع المجتمع الذي عاشوا في إطاره[٤] .

أما الفرس في العصر العباسي فقد علا نجمهم وقويت شوكتهم ، ذلك أن دولة بني العباس قامت على أكتاف الفرس ، وبتأييدهم ومساندتهم ، فكان طبعيا أن يكافئ العباسيون الفرس بتولي بعض المناصب والأمور الهامة في الدولة كإمارة الأقاليم وقيادة الجيوش والحجابة والقضاء ونحو ذلك .

وظل الفرس يعملون بمكر ودهاء ، ويتسللون إلى المناصب العامة في الدولة حتى صار نفوذهم قويا وبأسهم مخشيا ، وأحس الخليفة الرشيد بخطرهم فعجل بهم ، ونكل برءوسهم فيما عرف بنكبة البرامكة [١].

ثم عاد نجمهم للظهور بعد أن ناصروا المأمون ووقفوا إلى جانبه في محاربة أخيه الأمين حتى تحقق لهم ما أرادوا ، ولكن المأمون كان ذكيا فطنا أريبا ، فتحول بعد مقتل أخيه عن مرو ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ ، غير أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش لم يضعف .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس[٢].

---

(٤) انظر الشعراء السود د/ عبده بدوي ، ص ١٥٨ .

(١) راجع في نكبه البرامكة : تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٧ .

(٢) انظر : العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ، ص ٧٦ .

ويعد بشار بن برد من أبرز الشعراء الذين أوقدوا نار الشعوبية وشنوا حربا ضروسا على الثقافة والحضارة العربية ، فمضى يحقر من شأن العرب ، ويقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه وأجداده من الفرس الذين ينتسب إليهم من جهة أبيه والروم الذين كان يزعم أنه ينتمي إليهم من جهة أمه [١] وذلك حيث يقول[٢]:

وقيصر خالي إذا عددت يوما نسبي

ومن نماذج شعوبيته الصارخة قوله [٣]:

أحين كسيت بعد العري خزا ونادمت الكرام على العقار[٤]

تفاخر يا بن راعية وراع بني الأحرار حسبك من خسار

تريغ بخطبة كسر الموالي وينسيك المكارم صيد فار[٥]

وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب في ولغ الإطار[٦]

وقد تنكر بشار لمواليه من قيس ، حيث يقول :

أصبحت مولي ذي الجلال وبعضهم مولي العريب فخذ بدائك فافخر

---

(١) انظر : العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ، ص ٧٧ ، ٢٠١ .

(٢) ديوانه ١/ ٣٧٧ .

(٣) الأغاني ٣ / ٣٣ ، وانظر : أدب السياسة للحوفي ، ص ٤٩١ .

(٤) العقار : الخمر .

(٥) تريغ : تريد .

(٦) القراح : الماء الخالص الذي لا يخالطه شيء .

أما أبو نواس فقد شن ثورته على الأطلال شعوبية صارخة صب من خلالها جام غضبه على الحضارة والثقافة العربية ، وعبر عما يكنه من حقد دفين لكل ما هو عربي ، وعن تعصبه الصارخ لبني جلدته ، وذلك حيث يقول [1]:

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا ... تخب بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوًا ... ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الألبان يشربها رجال ... رقيق العيش بينهم غريب
بأرض نبتها عشر وطلح ... وأكثر صيدها كلب وذيب
إذا راب الحليب فبل عليه ... ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق لبيب
أعاذلتي خلا رشدي قديما ... فشقى الآن جيبك لا أتوب
فذاك العيش لا شجر البوادي ... وذاك العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزروب
تعيرني الذنوب وأي حر ... من الفتيان ليس له ذنوب

ويقول في قصيدة أخرى :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٠٠ .

يبكي على طلل الماضين من أسد لا دَرَّ دَرّكَ قل لي من بنو أسد؟
ومن تيمم ومن قيس ومن يمن ليس الأعاريب عند الله من أحد
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين باك على نؤى ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة صفراء تفرق بين الروح والجسد

وكثيرا ما امتزجت الشعوبية بروح اللهو والمجون أو الزندقة على نحو ما نرى في قول أبي نواس :

وإن قالوا حرام فقل حرام ولكن اللذاذة في الحرام

وقوله :

الا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعني من الكني فلا خير في اللذات من دونها ستر

وعلى نحو ما نرى في قول بشار:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وقد جرت هذه الشعوبية والزندقة على أربابها وبالا كبيرًا حيث تعرضوا للسجن أو الطرد والنفي ، فقد تصدى واصل بن عطاء لبشار في البصرة ، وقال في إحدى خطبه محرضا عليه : أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله ؟ وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة على تعقب

بشارٍ وطرده ، وفي خلافة المهدي شهد جماعة من الثقات بأن بشارًا زنـديق ، فأمر المهدي بضربه حتى الموت ، فضرب سبعين سوطا كانت وفاته في إثرها سنة ١٦٨ هـ[١].

وقد تعرض أبو نواس- أيضا - للسجن بسبب مجونه ، ذلـك أن الخليفـة المأمون كان قد اتخذ من تقريب الأمين له وسيلة للتشـهير بـالأمين ، وأشـاع على المنابر أن الأمين استخلص رجلا شاعرًا ماجنا كافرًا يقال له الحسن بـن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكـب المـآثم ويهتـك الأعـراض ، فبلـغ ذلـك الأمين فنهى أبا نواس وزجره فلم ينته ، فألقى به الأمين في السجن ، فـمازال يستعطف من سجنه مرات ومرات والأمـين لا يتلفـت إليـه ، حتـى رق لـه الفضل بن الربيع وزير الأمين ، فشفع له ، وتلطف عند الأمين حتـى أطلـق سراحه [٢].

وقد تصدى بعض شعراء المعتزلة وغيرهم لهؤلاء الزنادقة ، وعملوا عـلى تفنيد حججهم وإبطالها ، على شاكلة ما كان من صفوان الأنصـاري تلميـذ واصل بن عطاء في تصديه لبشار والرد عليـه في ادعائـه تفضـيل النـار عـلى الطين ، فيقول صفوان[٣]:

---

(١) راجع : العصر العباسي الأول ، د/ شوقي ضيف ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

(٢) انظر: العصر العباسي الأول ، د/ شوقي ضيف ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٢٧ ، وانظر: العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

زعمت بأن النار أكرم عنصر وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند

وتخلق في أرحامها وأرومها أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد[1]

وفي القعر من لج البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد

وفي قلل الأجبال خلف مقطم زبرجد أملاك الورى ساعة الحشد

وفي الحرة الرجلاء تلفي معادن لهن مغارات تبجس بالنقد[2]

من الذهب الإبريز والفضة التي تروق وتصبي ذا القناعة والزهد

وكل فلز من نحاس وآنك ومن زئبق حَيٍّ ونوشاذر يُسْدِي [3]

وكل يواقيت الأنام وحليها من الأرض والأحجار فاخرة المجد

وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد

فيابن حليف الطين واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرق الرشد[4]

أتهجو أبا بكر وتخلع بعده عليا وتعزو كل ذاك إلى برد

كأنك غضبان على الدين كله وطالب ذَحل لا يبيت على حقد [5]

أتجعل ليلى الناعطية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد [6]

---

(١) العقد : الحساب والعد .

(٢) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة ، الرجلاء : الوعرة الخشنة ، تبجس : تتفجر .

(٣) آنك : رصاص ، النوشاذر : حجر أبيض صاف كالبلور .

(٤) يشير بقوله حليف الطين إلى حرفة برد والد بشار ، فإنه كان طيانا يضرب اللبن .

(٥) ذحل (بفتح فسكون) : ثأر ، لا يبيت على حقد : المراد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٦) ليلى الناعطية : امرأة من غلاة الشيعة .

* * *

نصوص وتراجم وتعليقات
في ضوء العصر العباسي

من وراء القضبان لعلي بن الجهم

كان لعلي بن الجهم مكانة رفيعة لدى خلفاء بني العباسي ، فقد ولاه المعتصم مظالم حلوان [١]، ثم علا نجمه في صدر خلافة المتوكل ، ما أوغر صدور حساده ، فنقموا عليه، وعملوا على الدس له والوقيعة به عند المتوكل حتى تمكنوا من ذلك ، فأمر المتوكل بحبسه ، ومن وراء القضبان أنشأ بن الجهم هذه القصيدة [٢] :

قالَت حُبِستَ فَقُلتُ لَيسَ بِضائِرٍ ... حَبسي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ

أَوَ ما رَأَيتِ اللَيثَ يَألَفُ غيلَهُ ... كِبرًا وَأَوباشُ السِباعِ تَرَدَّدُ [٣]

وَالشَمسُ لَولا أَنَّها مَحجوبَةٌ ... عَن ناظِرَيكِ لَما أَضاءَ الفَرقَدُ

وَالبَدرُ يُدرِكُهُ السِرارُ فَتَنجَلي ... أَيّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ [٤]

وَالغَيثُ يَحصُرُهُ الغَمامُ فَما يُرى ... إِلّا وَرِيِّقُهُ يُراحُ وَيَرعُدُ [٥]

وَالنارُ في أَحجارِها مَحبوءَةٌ ... لا تُصطَلى إن لَم تُثِرها الأَزنُدُ [٦]

وَالزاغبِيَّةُ لا يُقيمُ كُعوبَها ... إِلّا الثِقافُ وَجَذوَةٌ تَتَوَقَّدُ [٧]

---

(١) حلوان : موضع ببلاد العراق . انظر : معجم ما استعجم ٢ / ٤٦٣ .

(٢) ديوانه ، صـ ٤١ .

(٣) غيله : مسكنه .أوباش السباع : الضعيف منها والمحتقر .

(٤) السرار: آخر الشهر ، ولا يكون للقمر فيه نور ، ويكون ذلك إيذانًا بتجدد القمر .

(٥) ريقه : أوله ومقدمه .

(٦) الأزند : جمع زند ، وهو العود الذي تقدح به النار ، يقال للأعلى زند وللسفلى زندة .

(٧) الزاغبية : نوع من الرماح ينسب إلى رجل اسمه زاغب كان يعمل الأسنة .

غِـــيَرُ اللَيـــالي بادِئـــاتٌ عُـــوَّدٌ وَالمـــالُ عارِيَـــةٌ تعـــار وَتنفَـــدُ[1]

وَلِكُـــلِّ حـــالٍ مُعقِـــبٌ وَلَـــرُبَّما أَجـــلى لَـــكَ المَكـــروهُ عَـــمّا يُحمَـــدُ

لا يُؤيِسَـــنَّكَ مِـــن تَفَـــرُّجِ كُربَـــةٍ خَطـــبٌ رَمـــاكَ بِـــهِ الزَمـــانُ الأَنكَـــدُ

كَـــم مِـــن عَليـــلٍ قَـــد تَخَطّـــاهُ الـــرّدى فَنَجـــا وَمـــاتَ طَبيبُـــهُ وَالعُـــوَّدُ

صَـــبراً فَـــإِنَّ الصَـــبرَ يُعقِـــبُ راحَـــةً وَيَـــدُ الخَليفَـــةِ لا تُطاوِلُهـــا يَـــدُ

وَالحَـــبسُ مـــا لَم تَغشَـــهُ لِدَنِيَّـــةٍ شَـــنعاءَ نِعـــمَ المَنـــزِلُ المُتَـــوَرَّدُ

***

يـــا أَحمَـــدُ بـــنَ أَبي دُؤادٍ إِنَّـــما تُـــدعى لِكُـــلِّ عَظيمَـــةٍ يـــا أَحمَـــدُ

بَلِّـــغ أَمـــيرَ المُـــؤمِنينَ وَدونَـــهُ خَـــوضُ العِـــدا وَمخـــاوِفٌ لا تَنفَـــدُ

أَنـــتُم بَنـــو عَـــمِّ النَبِـــيِّ مُحَمَّـــدٍ أَولى بِـــما شَرَعَ النَبِـــيُّ مُحَمَّـــدُ

مـــا كـــانَ مِـــن حَسَـــنٍ فَـــأَنتُم أَهلُـــهُ طابَـــت مَغارِسُـــكُم وَطـــابَ المَحتِـــدُ[2]

أَمِـــنَ السَـــوِيَّةِ يـــاابنَ عَـــمِّ مُحَمَّـــدٍ خَصـــمٌ تُقَرِّبُـــهُ وَآخَـــرُ تُبعِـــدُ

إِنَّ الَّـــذينَ سَـــعَوا إِلَيـــكَ بِباطِـــلٍ أَعـــداءُ نِعمَتِـــكَ الَّتـــي لا تُجحَـــدُ

شَـــهِدوا وَغِبنـــا عَـــنهُمُ فَتَحَكَّمـــوا فينـــا وَلَـــيسَ كَغائِـــبٍ مَـــن يَشـــهَدُ

لَـــو يَجمَـــعُ الخَصـــمَينِ عِنـــدَكَ مَشـــهَدٌ يَومًـــا لَبـــانَ لَـــكَ الطَريـــقُ الأَقصَـــدُ

فَلَـــئِن بَقيـــتُ عَـــلى الزَمـــانِ وَكـــانَ لي يَومًـــا مِـــنَ المَلِـــكِ الخَليفَـــةِ مَقعَـــدُ

---

(١) المتورد : الذي يرده الناس وينزلون به .

(٢) المحتد : الأصل .

وَاحتَجَّ خَصمي وَاحتَجَجتُ بِحُجَّتي لَفَلَجتُ في حُجَجي وَخابَ الأَبعَدُ[1]

وَاللهُ بالِغُ أَمرِهِ في خَلقِهِ وَإِلَيهِ مَصدَرُنا غَداً وَالمَوردُ

وَلَئِن مَضَيتُ لَقَلَّما يَبقى الَّذي قَد كادَني وَلَيَجمَعَنّا المَوعِدُ

فَبِأَيِّ ذَنبٍ أَصبَحَت أَعراضُنا نَهباً يُشيدُ بِها اللَئيمُ الأَوغَدُ[2]

الشاعر:

أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود ، ولد سنة ١٨٨هـ، وقيل سنة ١٩٠هـ ببغداد على الأرجح ، في أسرة ذات علم وأدب ، وعلى قدر من الوجاهة والجاه ، فقد ولى المأمون والده الجهم بريد اليمن وطرازها، وولاه الثغر ، وولاه الواثق الشرطة في بغداد ، وكان أخوه الأكبر محمد مقربا من المأمون فولاه عدة ولايات في بلاد فارس ، ثم ولاه المعتصم دمشق.

وقد تفتقت شاعرية علي مبكرًا ، فتذكر الروايات أنه كان يملأ الدار شغبا وعبثا ولعبا ، فضاق به والده ، وشكاه إلى معلمه في الكتاب ، وطلب منه أن يحبسه بعض الوقت تأديبا له ، فأجابه المعلم إلى ذلك ، فاغتاظ علي من أبيه ومن الحبس ، فأخذ شق لوح وكتب فيه رسالة إلى أمه بعث بها إليها مع بعض الصبيان ، فقال[3] :

---

(١) لفلجت : لأفصحت ودحضت خصمي .

(٢) الأوغد : الأحمق الدنئ الرذل .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ، صـ ٣١٩ .

يـــا أُمَّتـــا أَفـــديكِ مِـــن أُمِّ أَشـكو إِلَيـكِ فَظاظَـةَ الجَهـمِ
قَـــد سُرِّحَ الصِـــبيانُ كُلُّهُـــمُ وَبَقيـتُ مَحصـورًا بِـلا جُـرمِ

فشفعت له أمه عند أبيه فأطلق سراحه .

وكان ابن الجهم شاعرا مجيدا مفلقا مطبوعا ، ولم يكد يتجاوز العشرين عامًا حتى علا نجمه بين الشعراء ، وصار من مداح المعتصم ، ثم ازداد نجمه لمعانًا وازدهارا في أيام المتوكل الذي قربه واتخذه جليسا ونديما ، مما أوغر قلوب حساده عليه ، فكادوا له عند المتوكل حتى ألبوه عليه ، فلما حبس وقال هذه القصيدة التي مطلعها :

قالوا حبست فقلت ليس بضائر حبســـي وأي مهنـــد لا يغمـــد

ثم قال حين صلبه طاهر بن الحسين بأمر المتوكل يوما إلى الليل مجردًا من ثيابه :

لم ينصبوا بالشاذياخ صـبيحة الـــ إثنين مغموزًا ولا مجهـــــولا [1]
نصـبوا بحمـد الله مـلء عيـونهم حســنا ومــلء قلــوبهم تبجــيلا
مـــا ضره أن بـــز عنـــه ثيابـــه فالسيف أهـول مـا يـرى مسـلولا

حكموا له بأنه أشعر الناس ، فأذعنت له الشعراء وهابته الأمراء[2] وبعد أن أطلق سراحه عاد ابن الجهم إلى بغداد ، لكن المتوكل كان قد ازور عنه فعاش في بغداد مهملا مبعدًا عن القصور ، وفي سنة ٢٤٩هـ أغار الروم

(١) الشاذياخ : ضاحية من ضواحي نيسابور .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ، صـ٣٢١ .

على بعض الثغور ، فهب المسلمون لقتالهم ، وخرج علي فيمن خرج لقتال الروم ، وفي الطريق أغار بعض الأعراب على القافلة فجرح علي ، ومات في العام نفسه متأثرا بجراحه[١].

ومما يختار له قوله[٢] :

هـي الـنفس مـا حملتهـا تتحمـل ... وللـــدهر أيـــام تجـــور وتعـــدل

ولا عار أن زالت عن الحر نعمـة ... ولكـــن عـــارًا أن يـــزول التجمـــل

وعاقبـــة الصـــبر الجميـــل جميلـــة ... وأفضل أخلاق الرجـال التفضـل

القصيدة :

هذه القصيدة التي قالها علي بن الجهم في محبسه تعد من أفضل ما قيل في بابها، وصفها البديعي بأنها أحسن ما قاله مسجون [٣] ، وقال المسعودي : شعر معروف لم يسبق إلى معناه أحد[٤] ، وقال ابن خلكان : أبيات جيدة لم يعمل في هذا المعنى مثلها [٥].

---

(١) انظر في أخباره : الأغاني ٩ / ٩٩ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، صـــ ٣١٩، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٥٥، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٤٣، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٢/ ٢٨٩، والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ، ص ٢٥٥ ، ومقدمة ديوانه لخليل مراد بك ، ص ٥ ، ط : دار الآفاق ، بيروت .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ، صـــ ٣٢١ .

(٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي ، صـ٦٣ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٤/ ١١٢ .

(٥) وفيات الأعيان ٣ / ٣٥٧ .

فالشاعر يصور نفسه سيفًا مسلولًا لا يضيره أن يغمد إلى حين " وأي مهند لا يغمد" ، وأنه أسد في أجمته ، وشمس في حجابها ، وبدر في سراره ، بل لكأنه غيث مضمر في غمامه ، ونار مكنونة في زندها ، ورمح يصقله مثقفه..[1].

وعلى الرغم من تماسك الشاعر في مطلعها فإنه لم يجد بدًّا من الاستنجاد بابن أبي دؤاد ، ومحاولة التقرب إلى العباسيين رجاء أن يتفهموا أمره ، ويقيلوا عثرته ، وينصفوه من حساده وشانئيه ، فذكر تلك القرابة التي تربطهم بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، فهم أبناء عمومته ، وأولى الناس بشرعته ، وهو ما حرص العباسيون دائمًا على الاتصاف به ، إذ كانوا يرون أنهم بتلك القرابة أولى الناس بالخلافة .

والشاعر بذكر هذه القرابة يتقرب إليهم من جهة ، ويذكرهم ـ بصورة إيحائية ـ بما تقتضيه هذه القرابة من الإنصاف والعفو ، فهم أولى الناس باتباع شرعة ابن عمهم التي قامت على الحلم والصفح لا على البطش والانتقام ، وليس من العدالة التي جاء بها ابن عمهم أن يقرب أحد الخصمين ويقصي الآخر ، مشيرًا بذلك إلى أنه قد بخس حقه حيث أبعد في وقت قرب فيه أعداؤه وخصومه .

وإن هؤلاء الحاقدين الذين وشوا به أناس خونة ، منكرون لنعم الخليفة التي لا تجحد ، وقد انتهزوا فرصة إقصاء الخليفة له وعملوا جاهدين على

---

(١) انظر العصر العباسي الثاني ، د/ شوقي ضيف ، ص ٢٦٩ .

النيل منه ، والإيقاع به ولو جمعه وإياهم مجلس عند الخليفة لأبلج ولجلجوا ، ولفلجهم بحجته ، وبان للخليفة المحق من المبطل ، وإن واتته منيته قبل هذا اليوم فإنهم لن يخلدوا من بعده ، وسيجمعهم وإياه موعد عند من لا يظلم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وفي قوله :" وليجمعنا الموعد" تحذير ضمني للخليفة من ذلك اليوم الذي يجمع الجميع - الحكم والخصمين معا - بين يدي الله ، وسيكون الحكم لله وحده على الخليقة وسواه.

وكان علي بن الجهم قبل هذه المحنة يتعرض لآل طاهر بالهجاء ، فلما كتب المتوكل إلى طاهر بن الحسين يأمره بحبسه ، ثم بصلبه يوما إلى الليل وجد طاهر في ذلك فرصة للتشفي من ابن الجهم ، وأحس ابن الجهم بذلك، فلما أمر المتوكل بإطلاق سراحه التقط أنفاسه ، ثم التفت إلى طاهر قائلًا[1]

أطاهر إني عن خراسان راحل ومستخبر عنها فما أنا قائل

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرًا ، فإني لا أفعل بك إلا خيرًا ، ووصله وحباه وكساه[2] .

* * *

(١) ديوانه (تكملة الديوان) ، ص ١٦٦ .

(٢) انظر : الأغاني ٩ / ١٠٢ ، ومقدمة ديوانه لخليل مراد بك ، ص ١٥ .

بين البحتري والفتح بن خاقان

النص:

يقول البحتري[1]:

يَهُـــونُ عَلَيْهَـــا أنْ أبِيـــتَ مُتَـــيَّمًا أُعَـــالِجُ وَجْـــدًا في الضّـــمِيرِ مُكَـــتَّمًا
وَقد جاوَرتْ أرْضَ الأَعادِي وأصبَحَتْ حِمَى وَصْلِها مذ جاوَرَتْ أبرَقَ الحِمى[2]
بكَـتْ حُرْقَـةً، عنـدَ الـوَدَاعِ، وأرْدفـتْ سُـلُوّاً نَهَـى الأحْشَـاءَ أنْ تَتَضـرّما
فلَـمْ يَبـقَ مِـنْ مَعْرُوفِهـا غَـيرُ طـائِفٍ مُلِـمٍّ بِنَـا، وَهْنًـا، إذا الرّكـبُ هَوّمـا[3]
يَكـادُ وَمِـيضُ الـبَرْقِ عنـدَ اعتِرَاضِـهِ يُضِـيءُ خَيَـالًا جَـاءَ مِنْهَـا مُسَـلِّمًا
وَلمْ أنْسَـهَا، عِنـدَ الـوَداعِ وَنَثْرَهـا سَـوَابِقَ دَمـعٍ أعجَلَـتْ أن تُـنَظَّمًا
وَقالتْ هـلِ الفَـتحُ بـنُ خَاقَـانَ مُعقِـبٌ رِضًـا فيَعُـودَ الشّـملُ منّـا مُلأَّمًـا[4]
خَلـيلَيّ كُفّـا اللّـوْمَ في فَـيْضِ عَـبرَةٍ أبَـى الوَجْـدُ إلاّ أنْ تَفـيضَ وَتَسـجُمَا[5]
وَلاَ تَعْجَبَـا مِـنْ فَجعَـةِ البَـينِ إنّنـي وَجَـدتُ الهَـوَى طَعمَـينِ شـهداً وَعَلقَـمَا

***

(١) ديوانه ٣ / ١٩٨١.

(٢) الأبرق : المكان الغليظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة ، والحمى (في الأصل) : موضع فيه ملأ يحمي من الناس ، فإذا أطلق أريد به حمى ضربة : انظر: معجم البلدان ٣ / ٣٠٨.

(٣) الوهن (من الليل) : نحو منتصفه أو بعد ساعة منه ، هوّم : نام نومًا خفيفًا أو غفا وهز رأسه من النعاس .

(٤) ملأما : ملتئما موصولا مجمعا .

(٥) تسجم : تسيل ، يقال : سجمت العين الدمع إذ أسالته .

عَـذيرِي مِـنَ الأيّـامِ رَنّقْـنَ مَشْـرَبي ... وَلَقّيتَنـي نَحْسًـا مـنَ الطّـيرِ أشْـأمَا

وأكْسَبْنَني سُـخطَ امـرِىءٍ بـتُّ مَوْهِنًـا ... أرَى سُـخطَهُ لَـيلاً مـعَ اللّيـلِ مُظلِـمَا

تَبَلّجَ عن بَعضِ الرّضَـا وانطَـوَى عـلى ... بَقِيّـةِ عَتْـبٍ شَـارَفَتْ أنْ تَصَـرّما

إذا قُلْـتُ يَوْمًـا قَـدْ تَجـاوَزَ حَـدَّهَا ... تَلَبَّـثَ فِي أَعْقَابِهـا وتَلَوَّمـا(١)

وأصْـيَدَ إنْ نازَعْتُـهُ اللّحـظَ رَدّهُ ... كَلـيلاً وإنْ راجَعتُـهُ القَـوْلَ جَمجَـمَا(٢)

ثَنـاهُ العِـدى عَنّـي فأصَـبحَ مُعْرِضًـا ... وأوْهَمَـهُ الوَاشُـونَ حَتّـى تَوَهّمـا

وَقَـد كَـانَ سَـهلاً واضِـحًا، فتَـوَعّرَتْ ... رُبَـاهُ، وَطَلْقـاً ضـاحِكًا فَـتَجَهّما

أمُتّخِـذٌ عِنـدي الإسَـاءَةَ مُحسِـنٌ ... وَمُنْـتَقِمٌ مِنّـي امـرُؤٌ كَـانَ مُـنعِمَا

وَمُكتَسِـبٌ في المَلامَـةَ ماجِـدٌ ... يَـرَى الحَمـدَ غُـنْمًا والمَلاَمَـةَ مَغرَمَـا

يُخَـوّفُني مـن سُـوءِ رأيِـكَ مَعشَـرٌ ... وَلاَ خَـوْفَ إلاّ أنْ تَجُـورَ وَتَظْلِـمَا

أُعِيـذُكَ أنْ أخشـاكَ مـن غَـيرِ حـادِثٍ ... تَبَـيّنَ أوْ جُـرْمٍ إلَيـكَ تَقَـدّما

ألَسْـتُ المُـوَالِي فيـكَ نَظْـمَ قَصَـائِدٍ ... هيَ الأنجُـمُ اقتَـادَتْ مـعَ اللّيـلِ أنجُـمَا

ثَنَـاءٌ كَـأنّ الـرّوْضَ مِنْـهُ مُنَـوِّر ... ضُـحًى وكـأنّ الـوَشيَ فيـهِ مُسَـهَّمَا(٣)

فلَـوْ أنّنـي وَقّـرْتُ شِـعرِي وَقَـارَهُ ... وأجلَلْـتُ مَـدحي فيـكَ أنْ يَتَهَضّـمَا(٤)

---

(١) تلوم : تمهل وانتظر.

(٢) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرًا وزهوا ومنه قيل للملك : أصيد ، ويطلق على كل ذي حول وطول من السلطان ، جمجما : لم يبن كلامه ، والمراد أنه حيي شديد الحياء .

(٣) مسهما : مخططا .

(٤) يتهضما : ينتقص .

لأكـبَرْتُ أنْ أُوْمـي إلَيـكَ بإصْـبَعٍ تَضَـــرّعَ أوْ أُدْني لَمعـــذِرَةٍ فَـــمَا

وَكَـانَ الـذي يـأتي بـهِ الـدّهرُ هَيّنًـا عَـليّ وَلَـوْ كَـانَ الحِـمَامُ المُقَـدَّمَا

وَلَكِنّنـــي أُعْـــلي مَحَلّـــكَ أنْ أُرَى مُـــدِلاً ، وأســـتَحيِيكَ أنْ أتَعَظّـــما

أعِـدْ نَظَـراً فـيما تَسَـخّطتَ هـل تَـرَى مَقَـــالًا دَنِّيـــا أوْ فَعَـــالاً مُـــذَمَّمَا

رأيـتُ العِـرَاقَ أنْكَرَتْنـي وأقسَـمَتْ عَـــليّ صُرُوفُ الـــدّهرِ أنْ أتَشَـــأمَا

وَكَـــانَ رَجَـــائي أنْ أءوبَ مُمَلَّكًـــا فَصَـــارَ رَجَـــائي أنْ أءوبَ مُسَـــلَّمَا

ولا مـــانعٌ مِمّـــا تَوَهّمـــتُ غَـــيرَ أنْ تَـــذَكّرَ بَعـــضَ الأُنْـــسِ أو تتَـــذمّمَا

وأكـــبَرُ ظَنّـــي أنّـــكَ المَـــرْءُ لمْ تكُـــنْ تُحَلّـــلُ بـــالظّنّ الـــذّمامَ المُحَرَّمـــا

حَيَـاءٌ فَلَـمْ يَـذْهَبْ بي الغَـيُّ مَـذْهَبًا بَعيـدًا، ولم أرْكَـبْ مـن الأمـرِ مُعظَـمَا

وَلم أعـرِفِ الـذّنْبَ الـذي سُـؤتَني لـهُ فأقتُـــلَ نَفـــسِي حَســـرَةً وَتَنَـــدُّما

وَلَـــوْ كَـــانَ مـــا خُبّرْتُـــهُ أو ظَنَنْتُـــهُ لَمـــا كَـــانَ غَـــرْواً أنْ أُلُـــومَ وَتُكرِمـــا

أُذَكّـرُكَ العَهْـدَ الـذي لَـيسَ سُـؤدَدًا تَناسِـــيهِ والـــوُدَّ الصّـــحيحَ المُسَـــلَّما

وَمَـا حَمّـلَ الرّكبـانُ شَرْقًـا وَمَغرِبًـا وأنْجَـدَ في أعْـلَى الـبِلادِ وأتْهَـمَا (١)

أُقِـــرُّ بِـــما لَمْ أجْنِـــهِ مُتَنَصِّـــلاً إلَيْـــكَ عـــلى أنّي إخالُـــكَ ألْوَمَـــا

لِيَ الـذّنْبُ مَعْرُوفًـا وإن كنـتُ جـاهلاً بـــهِ وَلَـــكَ العُتْبَـــى عَـــلَيّ وأنْعِـــمَا (٢)

---

(١) أنجد : أتى نجدًا وخرج إليها ، وأتهم : أتى تهامة أو نزل بها ، والمراد أن في مدائحه في الفتح قد انتشرت وسار بها الركبان في كل مكان .

(٢) العتبى: الرضا .

وَمِثْلُــكَ إنْ أبْــدَى الفَعَــالَ أعــادَهُ وإنْ صَــــنَعَ المَعــــرُوفَ زَادَ وَتَمَّــــمَا

وَمَــا النّــاسُ إلا عُصْــبَتَانِ فَهَــذِهِ قَرَنْــتَ بهــا بُؤسـى وَهَاتيــكَ أنْعُــمَا

وَحِلَّــةَ أعْــدَاءٍ رَمَيْــتَ بِعَزْمَــةٍ فأضْرَمْتَهــا نــاراً وأجْرَيْتَهَــا دَمَــا [1]

الشاعــر:

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي ، لقب بالبحتري نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر ، ولد سنة ٢٠٤ ، وقيل سنة ٢٠٦هـ بمنبج على الشمال الشرقي من حلب ، ونشأ بها عربيًّا فصيحًا ، وكان شاعرا مطبوعا ، حلو الألفاظ ، سهل التراكيب ، وكان متكسبًا كثير المدح للخلفاء ووزرائهم وولاتهم وقوادهم ، وقد توطدت علاقته بالمتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، وكانت وفاته سنة ٢٨٦ هـ[2].

الفتح بن خاقان:

هو الفتح بن خاقان بن أحمد ، وقيل : ابن خاقان بن غرطوج ، كان من سلالة ملوك الفرس ، وكان أديبًا شاعرًا معروفًا بالفطنة والذكاء ، وكان غاية في الجود ، وقد اتخذه المتوكل أخًا ووزيرًا ، وكان يقدمه حتى على أبنائه، وكانت وفاته سنة ٢٤٧هـ [3].

---

(١) الحلة : البلدة أو المحلة .

(٢) انظر في أخباره : أخبار البحتري لأبي بكر الصولي ، وعبقرية البحتري لعبد العزيز سيد الأهل ، والبحتري بين ناقديه قديمًا وحديثًا لصالح حسن اليظي .

(٣) انظر في أخباره الفتح : معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ ، والأعلام ٥ / ١٣٣ .

القصيدة:

موضوع القصيدة الرئيس هو الاعتذار ، والبحتري يعد فارس حلبة هذا الفن في العصر العباسي ، وقد شهد له النقاد بطول الباع في هذا الفن ، يقول أبو هلال العسكري - إثر حديثه عن اعتذاريات النابغة - : ولا أعرف أحدًا من المحدثين بلغ فيه مبلغه إلا البحتري ، فإنه قد أجاد القوافي في صنوفه ، وأحسن وأبلغ ، ولم يذر لأحد مزيدًا ، حتى قال بعضهم : هو في هذا النوع النابغة الثاني [1].

ويقول في موضوع آخر : " وما سلك أحد طريقته - يعني النابغة - هذه فأحسن فيها كإحسان البحتري"[2].

ويرى ابن المعتز أن اعتذارات البحتري إلى الفتح بن خاقان ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان مثلها [3].

***

وقد استهل البحتري قصيدته بمطلع غزلي ، وواضح أنه ليس من ذلك الغزل المقصود لذاته ، إنما هو من هذا اللون الذي يتخذ منه الشاعر توطئة لموضوعه .

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١/ ٩١.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢١٨.

(٣) انظر : نهاية الأرب للنويري ٣ / ٢٦٣ ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٢ / ٣٥٩ ، والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ، ص ٢٢١ ، والبحتري بين ناقديه قديما وحديثًا لصالح حسن اليظي ، ص ١١٢.

وقد ارتكز البحتري فيه على الحديث عن الفراق والوداع ، والإعراض والسلو ، وإسبال العبرات ، وتلك هي المعاني التي كانت تجول بخاطره ، وتسيطر عليه بعد أن أعرض الفتح عنه ، وكأنه يومئ بحديثه عن تلك المرأة إلى حاله مع الفتح.

واستفتح البحتري مطلعه باستفهام رقيق يتودد فيه إلى صاحبته التي تيمته مستعطفا ، ومستبعدًا أن تتركه في أرق شديد يعالج الوجد أو يكابد الشوق.

وهذا الاستفهام إنما ينم عن التساؤلات التي كانت تختلج في صدره ، فانتهى إلى صبها في هذا القالب الرقيق ، مستبعدًا أن يتركه الفتح يكابد آلام الصد والهجر .

والذي دفعه إلى هذا الاستفهام هو أن صاحبته قد صدت وجاورت أرض الأعادي ، معبرًا في ذلك عن حال الفتح معه ، وكان البحتري موفقا غاية التوفيق في عباراته واختيار ألفاظه ، حيث جعل صاحبه مجاورًا لأرض أعدائه مجرد جوار ، لكنه غير داخل في عداد هؤلاء الأعداء ، فالأمر بين الشاعر و ممدوحه لم يصل حد العداء ، إنما هو مجرد عتب جعل صاحبته بل صاحبه ينزل إلى جوار أرض الأعادي ، وإن كان هذا الجوار غير مرغوب فيه ، بل إنه ليشكل مصدر قلق وتوتر لدى الشاعـر.

وقد بكت صاحبته حرقة ثم أردفت سلوا عند وداعه ، وهو – بلا شك – يومئ بذلك إلى حال الفتح معه في تردده بين العتب والرضا ، وهو ما صرح به في قوله :

تبلج عن بعض الرضا وانطوى على بقية عتب شارفت أن تصـرما

لقد انعكست الحالة الشعورية عند البحتري على مطلعه الغزلي وأثرت فيه ، وجعلته يعلق رضا صاحبته على رضا الفتح ، متلطفا غاية التلطف في تخلصه حين قال :

وقالت هل الفتح بن خاقان معقب رضـا فيعـود الشمـل منـا ملأمـا

ثم يوجه البحتري الخطاب إلى خليليه جريا على الأسلوب العربي ، فيلتمس منهما أن يكفا عن لومه ، وأن يعذراه في فض عبراته ، وألا يعجبا من أمره أو فجيعته ، فقد ذاق طعم الهوى في حالي القرب والبعد ، فوجده شهدا حال القرب والوصال ، علقما مرا حال الصد والهجر .

ثم يطلب من يعذره من تلك الأيام النحسات التي كدرت صفوه ، وأحالت أيام سعده بؤسًا لا يطاق ، فحين غضب عليه الفتح أظلمت الدنيا في وجهه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وبات مؤرقا بين ظلمتين : ظلمة الليل الذي طال عليه ، وظلمة الخوف الذي يحيط به غير أنه يعود فيخفف من حدة الموقف ، فيصور الفتح مترددا بين العتب والرضا ، فقد أوشك ما في نفسه من وجد أن ينجلي ، وقد أبدى شيئا من الرضا ، ولم يبق في نفسه سوى بقية من عتاب أوشكت هي الأخرى أن تنصرم.

ولم يكد الأمل يراود الشاعر في أن صاحبه قد تجاوز حالة العتب إلى حالة الرضا أو أوشك حتى يراه قد عاد إلى لومه وعتبه ، فقد بذل أعداء الشاعر كل ما في وسعهم حتى أوهموا الفتح أمرًا لا حقيقة له فتغير عما كان عليه ، وأصبح صعبًا قاسيًا بعد أن كان سهلا واضحا ، وعبوسا متجهما بعد أن كان طلقا ضاحكا ، وصار منتهى رجاء الشاعر أن يظفر بسلامته بعد أن كان أمله أن يصبح مملكا.

ويشعر البحتري بقيمته كشاعر فنان ، وبقيمة مدائحه وشعره في الفتح وقد سارت به الركبان ، فتعز عليه نفسه ، وتغلبه انفعالاته ، حتى إنه ليكاد ينسى أنه يخاطب الفتح ، وأنه يعتذر إليه ، فيأتي بمثل قوله: " فلو أنني وقرت شعري وقاره" ؛ مما يشعر بأنه مقدم على ما يشبه الهجاء ، ولولا أنه استدرك فقال :" وأجللت مدحي فيك أن يتهضما" لوقع في حرج شديد .

ثم تهدأ ثورته ، فيعرف للفتح قدره ، وينزله منزلته ، ويستحيي أن يتعظم أمامه ، ويطلب منه إعادة النظر في سبب هذا السخط الذي لا يعرف الشاعر له سببا ، فلم يأت من القول أو الفعل ما يستحق عليه اللوم أو الذم، وإذا انتفى اللوم من هاتين الجهتين فلن يكون إلا وشاية حاقد أو حاسد .

ويبدي هواجس نفسه من مصيره بالعراق ، وكأنه لا يزال يشعر – على الرغم من طول إقامته به – أنه غريب ، ويعلن عن خيبة أمله ، ولعله يهدد من طرف خفي باحتمال رحيله إلى الشام[1] ، بما يعلن عن دهشته

(١) راجع: البحتري بين ناقديه قديما وحديثا د/ صالح حسن اليظي ، ص ١١٤، ١١٥.

واستبعاده أن يأخذه الفتح بالشبهة أو الظن ، فإنه لم يرتكب إثمًا ، ولم يعرف لنفسه ذنبًا ، ولو أنه ارتكب جرما لقتل نفسه حسرة وندما .

ويذَكِّر الفتح بأيام الوصال ، وبالعهد الذي ليس سؤددا تناسيه ، وبالود الذي لم تشبه شائبة ، وبالشعر الذي حمله الركبان شرقا ومغربا يفوح عطرًا بمديح الفتح ، ولأجل هذه الأيام ، وتلك المواقف فإنه يعترف بما لم يجنه ، ويقر بما لم يأته ، يحمل نفسه الذنب ، ويرى أن صاحبه أولى باللوم منه، لتناسيه هذا العهد الذي لا يزال الشاعر محافظا عليه .

وأرى أن الشاعر لم يوفق في قوله :" يخوفني من سوء رأيك معشر" حيث أسند سوء الرأي إلى صاحبه ، وهو مما ينبغي الاحتراز منه في مخاطبة المعتذر إليه ، ولا سيما إذا كان ملكا أو وزيرا أو نحو ذلك.

وقد حاول البحتري أن يتخلص من ذلك أو يخفف من حدته في الشطر الثاني من البيت إلا أنه قد وقع فيما هو شر من الأول حين قال : "ولا خوف إلا أن تجور وتظلما" فأسند الظلم والجور إلى الضمير العائد على الفتح ، وتخوف من وقوع ذلك منه، وكان الأولى به أن يصرف ذلك عنه، وأن يعمد إلى وصفه بعكس ذلك ، انتظارا لعفوه وصفحه ، فيجعله أهلا للصفح والعفو لا البطش والانتقام أو الظلم والجور.

وعلى كل فإن البحتري كان في موازنة صعبة بين الحفاظ على إبائه كشاعر فنان وإرضاء صديقه وممدوحه الفتح بن خاقان ، والعمل على استعطافه ،

فكان يتأبى ويترفع ويعاتب صاحبه ويلومه على هجره حينا ، ثم يذكر منزلة الفتح ومكانته ، ويراجع نفسه فيرق ويعتذر ، ويقر بما لم يجنه ، وينتظر رأي الفتح فيه ورضاه عنه حينًا آخر ، وقد نجح البحتري في ذلك ، وأبدع بما لا يطيقه إلا شاعر كبير فنان في طبقة البحتري .

* * *

بين أبي فراس والمتنبي
أنة رثاء ولمسة وفاء

بلغ أبا فراس الحمداني خبر موت أمه وهو أسير في بلاد الروم فرثاها بقوله [1] :

أيـــا أم الأســـير ســـقاك غيـــث بكـره منـك مـا لقـى الأسـير
أيـــا أمَّ الأســـيرِ ســـقاكِ غيـــثٌ تَحَـــيّرَ ، لا يُقِـــيم وَلا يَسِـــير
أيـــا أم الأســـير ســـقاك غيـــث إلى مـن بالفـدا يـأتي البشـير؟
أيـــا أم الأســـير لمـــن تربـــى وقد مت الـذوائب والشـعور

***

إِذا اِبنُـــكِ ســـارَ في بَـــرٍّ وَبَحـــرٍ فَمَـن يَـدعو لَـهُ أَو يَسـتَجيرُ
حَـــرامٌ أَن يَبيـــتَ قَريـــرَ عَـــينٍ وَلُـــؤمٌ أَن يُلِـــمَّ بِـــهِ الســـُرورُ
وَقَـــد ذُقـــتِ الرَزايـــا وَالمَنايـــا وَلا وَلَـــدٌ لَـــدَيكِ وَلا عَشـــيرُ
وَغابَ حَبيـبُ قَلبِـكِ عَـن مَكـانٍ مَلائِكَـةُ السَـماءِ بِـهِ حُضـورُ

***

ليبكـك كـل يـوم صـمت فيـه مصـابرة وقـد حمـى الهجـير
ليبكـك كـل ليـل قمـت فيـه إلى أن يبتـدي الفجـر المنـير

---

(١) ديوان أبي فراس ، ص ١٦٢ ، ط : دار صادر ، بيروت

ليبكك كل مضطهد مخوف أجرتيه وقد عز المجير

ليبك كل مسكين فقير أغثتيه وما في العظم زير[1]

أيا أماه كم هم طويل مضى بك لم يكن منه نصير

أيا أماه كم سر مصون بقلبك مات ليس له ظهور

أيا أماه كم بشرى بقربي أتتك ودونها الأجل القصير

إلى من أشتكي ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور؟

بأي دعاء داعية أوقى بأي ضياء وجه أستنير ؟

بمن يستدفع القدر المواقي بمن يستفتح الأمر العسير

نسلي عنك أنا عن قريب إلى ما صرت في الأخرى نصير

***

وبلغ أبا الطيب المتنبي خبر وفاة جدته لأمه ، فقال في رثائها [2]:

ألا لا أرى الأحداث حمدًا ولا ذمًا فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى وبكري كما أرمى

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

أحن إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وماضما

***

(١) المقصود بقوله : وما في العظم زير " أنه لم يبق لعظمه قوام يقوم به" .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق: عبد الوهاب عزام ، ص ١٥٩، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهتنا لم تزدني بها علما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورًا بي فمت بها غما
حرام على قلبي السرور فإنني أعد الذي ماتت به بعدها سما
تعجب من خطي ولفظي كأنها ترى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمه حتى أصار مداده محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقما

***

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
هبيني أخذت الثأر فيك من العدا فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى ؟
وما انسدت الدنيا علي لضيقها ولكن طرفا لا أراك به أعمى

***

لئن لذ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأَنفهمُ رغما
تغرب لا مستعظمًا غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدًا إلا لمكرمة طعما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتي مهجة تقبل الظلما

الشـــــاعــران :

أ- أبو فراس الحمداني :

هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ، ينتهي في عمومته إلى تغلب ، وفي خؤولته إلى تميم ، ولد في الموصل سنة ٣٢٠ هـ ، ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى قتل أبوه فاحتضنته أمه وابن عمه سيف الدولة الحمداني .

وكان سيف الدولة يرى في أبي فراس مخايل النجابة والفروسية ، ويقدر فيه شجاعته وشاعريته وكرم أخلاقه ، فقلده إمارة منبج ، وكان يصحبه في غاراته ومواقعه ، فيبلي أبو فراس بلاء حسنا ، غير أن الروم قد نصبوا له كمينًا على أبواب مبنج ففر أصحابه وقاتل وحده حتى أصابه سهم في فخذه، فأخذ أسيرًا إلى خرشنة ، ثم حمل منها إلى القسطنطينية ، فبقي في أسره سبع سنوات قبل أن يفتديه سيف الدولة ، قال فيها أفضل وأروع قصائده فيما يعرف بـ "روميات أبي فراس" .

وبينما هو في أسره جاءه الناعي بخبر وفاة أمه فأرسلها أنات باكيه في القصيدة المذكورة ، وكانت وفاته سنة ٣٥٧هـ [١].

---

(١) راجع : مقدمة ديوانه ، صـ ٥ ، ط: دار صادر ، بيروت .

ب- المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي ، أحد بني جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج عرب الجنوب ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ بمحلة بها تسمى "كندة" ، وكان أبوه سقاء يسقي الناس على جمل له بالكوفة ، وكان يلقب بعيدان السقاء .

والمتنبي شاعر ملء السمع والبصر ، اتصل بالعديد من أعلام وأمراء عصره من أمثال سيف الدولة ، وكافور الإخشيدي ، وعضد الدولة ، وابن العميد ، وغيرهم .

وقد نال المتنبي وشعره عناية كبيرة من الباحثين والدارسين والكتاب قديمًا وحديثًا ، فكتبت حوله عشرات الكتب والدراسات والبحوث والرسائل الجامعية ، نذكر منها : أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه للثعالبي ، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، والرسائل الحاتمية لأبي على الحاتمي ، والكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب بن عباد ، وأبو الطيب المتنبي للشيخ محمود شاكر ، ومع المتنبي لطه حسين ، وذكرى أبو الطيب بعد ألف عام لعبد الوهاب عزام ، والمتنبي بين ناقديه في القديم والحديث لمحمد عبد الرحمن شعيب ، وغير ذلك كثير ، وكانت وفاته سنة ٣٥٤هـ بعد أن ملأ الدنيا شعرًا ، وشغل الناس به وبشعره نقدًا ودراسة وبحثًا .

التعليق :

هذان النصان في فن الرثاء ، وهو شعر العواطف الأليمة ، لأنه يصدر – غالبا– عن نفوس جريحة مكلومة ، وقد سئل أحد الأعراب : لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم ؟ فقال : لأننا نقوله وقلوبنا محترقة [١].

وإذا كان بعض النقاد يرى أن الرثاء داخل في باب المديح ، ولا فرق بينه وبين المديح إلا في الشكل أو طرائق التعبير ، وأنه لا فرق بين المرثية والمدحة إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان ، وتولى ، وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك [٢] ، فإن هذا القول غير مسلم ، فالتجربة الشعرية في الرثاء غيرها في المديح ، والرثاء لا ينبغي أن يقف عن ذكر فضائل الميت وتعداد مناقبه ، ولو اقتصر على ذلك لجاء رثاء باردًا فاترًا لا يحرك عاطفة ولا يثير وجدانًا ، بل لابد أن يتخطى الشاعر المجيد ذلك كله إلى ما هو أبعد وأعمق تأثيرًا في النفوس ، وأدق تعبيرًا وتمثيلاً لحالته الشعورية إن كان صادقًا في رثائه ، فإذا كان الميت قريبًا أو صديقًا ذكر الراثي لوعته وأساه ، وأثر الفجيعة في نفسه ، وإذا كان الميت ملكا أو سلطانا أو أميرا أو قائدا ذكر

---

(١) انظر : الرثاء في الشعر العربي ، د/ محمود حسن أبو ناجي ، صـ١١

(٢) ذهب إلى القول بذلك : قدامة بن جعفر في كتابه " نقد الشعر" صـ ١١٨ تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، وتابعه في ذلك أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين"صـ١٣٧ تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وابن رشيق في كتابه : العمدة ٢ / ١٤٧ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

الشاعر ما يمثله موته من نكبة عامة وخسارة فادحة ، وأن موته يشكل خطبًا عامًا ، وفاجعة كبرى ، ونحو ذلك مما يدل على فداحة الخطب وعظم المصاب .

***

وبالنظر في النصين نجد أن أبا فراس كان في بكاء أمه أصدق وأرق من المتنبي في رثاء جدته .

فأبو فراس يبكي أمه وحاله معا ، وعنده ما يعينه على هذا البكاء ، وهو أسره ، وغيابه القهري عن شهود جنازاتها وتقبل عزائها ، وذكرياته معها ، وهي التي قامت على أمره ، وانقطعت لتربيته بعد مقتل والده .

ويكفي أن نشير إلى أنه ذكر لفظ الأسير خمس مرات في الأربعة الأبيات الأولى ، منها أربع مرات بقوله "أيا أم الأسير" ، مما يؤكد على امتزاج هموم أسره بحزنه لوفاة أمه ، وهي التي كانت تنتظر بحرقة يوم فدائه ، أما وقد لقيت ربها فمن ذا الذي يفرح بهذا الفداء ؟ "إلى من بالفدا يأتي البشير" .

ولا خـير في الـدنيا إذا لم يكـن بهـا صـديق يُسـرَّ أو عـدو يحـزن

ويزيد من ألمه أن ماتت دون أن يُسرَّ قلبها برؤيته حرًّا طليقًا ، لقد عاشت لهذا الأمل ، لكن الأجل القصير حال بينها وبين هذا الأمل الذي عاشت له.

ولقد ماتت وخلفته في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى دعائها ، وقد كانت متنفسه الوحيد إذا ضاقت بما فيها الصدور ، كما كانت مستودع سره ،

وموطن بثه للشكوى ، كما أن دعاءها كان الأمل الذي بقي له أن يتشبث به وقد تخلى عنه القريب والبعيد ، ولا عزاء ولا سلوى له إلا يقينه في أن الجميع صائر إلى ما صارت إليه ، وأنه القضاء الذي لا راد ولا مؤخر له .

أما المتنبي – المشغول بطموحاته ، وتحقيق أمانيه ، وتطلعه إلى المجد – فقد غلب عقله عاطفته ، وكان أقرب إلى الحكيم منه إلى الباكي ، ويتضح ذلك جليًا من خلال مطلعه الحكمي :

ألا لا أرى الأحـداث حمـدًا ولا ذمًـا فـما بطشـها جهـلا ولا كفهـا حلـمًا

إلى مثل مـا كـان الفتـى مرجـع الفتـى يعود كما أبـدى ويكـري كـما أرمـي

وقوله في ثنايا القصيدة :

عرفت الليالي قبل مـا صـنعت بنـا فلـما دهتنـا لم تـزدني بهـا علـمًا

فخبرته بالحياة ، وعلمه بأحداث الدهر جعله مهيئًا لتقبل مثل هذا الحادث الأليم ، وهو الشاعر الطموح الذي وطن نفسه على تحمل المخاطر ومواجهة الصعاب .

ويشير في المقطع الثاني إلى أمر حدث قبيل وفاتها ، فقد طالت غيبته عن جدته ، واذداد شوقها إليه ، فأرسلت إليه كتابًا تستخفه فيه ، وتشكو شوقًا إليه ، وطول الغيبة عنها ، فتوجه من الشام إلى العراق ، وانحدر إلى بغداد ، وأرسل إليها كتابًا يسألها المسير إليه ، فأخذت كتابه فقبلته ، وطارت به

فرحًا وسرورًا ، لكنها حمت لوقتها ، فماتت قبل أن تتحرك ، ودون أن تتحقق أمنيتهافي لقائه [1] ، وهو ما يشير إليه بقوله :

أتاهـا كتـابي بعـد يـأس وترحـة فماتـت سرورا بي فمـت بهـا غـمًا

غير أن شدة طموحه ، وانشغاله بطلب المجد ومقارعة الخصوم قد غلبه حتى أخرجه عما يقتضيه الرثاء من إظهار الحسرة والألم إلى ما يرضي طموحه ويفت في عضد خصومه ، فيقول :

لئن لذّ يـوم الشـامتين بيومهـا لقـد ولـدت منـى لأنفهـم رغـمًا

ثم يمضي مفتخرًا بنفسه غير مستعظم سواها ، ولا نازل على حكم أحد من الخلق ، إنما على حكم الله فحسب ، والموت حكم الله وقضاؤه ، فما كان لأحد أن يقاومه أو يقف في طريقه ، ولا يفوته بعد الفخر بنفسه أن يفخر بقومه الذين لهم نفوس كان بها أنف أن تسكن العظم واللحم، إنما تسكن العلا والمجد ، وتلك هي طبيعة المتنبي وشخصيته التي طالما انعكست على شعره أيًا كان الغرض الذي ينظم فيه .

* * *

(١) انظر ديوانه ، صـ ١٥٩، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة .

ضياء الدين بن الأثير ونماذج من كتاباته

أ- التعريف بابن الأثير :

هو أبو الفاتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الواحد الشيباني ، المعروف بضياء الدين بن الأثير[1].

ولقبه "ضياء الدين" يميزه عن أخويه : أبي السعادات مجد الدين بن الأثير صاحب كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، وأبي الحسن عز الدين بن الأثير صاحب كتاب "الكامل في التاريخ" المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، وكانوا جميعًا من العلماء المعدودين، كل في ميدانه[2] .

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر الواقعة شمال الموصل سنة ٥٥٨هـ ، ونشأ في بيت عز ومجد ، حيث كان والده أبو الكرم محمد الملقب بـ "أثير

---

(١) راجع في ترجمته وأخباره : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣٨٩ ، تحقيق : إحسان عباس ، ط: دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ومرآة الجنان لليافعي ٤/ ٩٧ ، نشر مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٢/ ٣١٥ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط : دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥/ ١٨٧، ط: دار الفكر ، بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩م ، والأعلام للزركلي ٨ / ٣٥٤ ، ط: دار العلم، بيروت ، سنة ١٣٨٩/ ١٩٦٩م ، وضياء الدين بن الأثير لـ محمد زغلول سلام ، ص ٣٢ وما بعدها ، ط: دار المعارف ، سنة ١٩٨١م (سلسلة نوابغ الفكر) .

(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣٩٧ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٧ / ١١٠، تحقيق : محمد عبد العزيز النجار ، نشر دار الغد العربي ، سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ومقدمة كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لأحمد الحوفي و د/ بدوي طبانة ، ص ٢٧ ، ط: نهضة مصر، بدون تاريخ .

الدين" مقربًا من آل زنكي ، ولاه قطب الدين بن زنكي على جزيرة ابن عمر ، ثم جعله صاحب خزانته بالموصل.

وقد أعد أثير الدين وأولاده إعداد أهلهم – فيما بعد – للكتابة والولاية والوزارة[1] ، وحين انتقل من جزيرة ابن عمر إلى الموصل انتقل معه أبناؤه، وبها أتم ضياء الدين تعليمه ، فحفظ القرآن الكريم ، وكثيرًا من أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكثيرًا من أشعار القدماء والمحدثين ، فحفظ شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ، وجانبًا كبيرًا من أشعار غيرهم ، ودرس النحو واللغة والبيان[2] ، مما أسهم في صقل موهبته ، وقدرته على التصرف في وجوه المعاني ، وحل المنظومة ، والاستعانة به في كتابته ونثره .

وفي سنة ٥٨٧هـ اتصل ضياء الدين بالقاضي الفاضل ، فوصله الفاضل في شهر جمادى الآخرة من هذه السنة بخدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، فأقام في خدمته إلى شهر شوال من السنة نفسها ، ثم طلبه الأفضل ابن صلاح الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة عنده والانتقال إلى ولده الملك الأفضل نور الدين ، فاختار الانتقال إلى نور الدين الذي قربه منه ، واتخذه وزيرًا له ، فلما توفي صلاح الدين واستقل الأفضل بحكم

---

(١) انظر: نصوص نقديه لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٣٠٣، ط : دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

(٢) انظر: نصوص نقديه لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٣٠٣، ط : دار الطباعة المحمدية ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

دمشق ألقى بكثير من أمور الدولة إلى وزيره ضياء الدين ، لكن الأفضل لم يسر على نهج والده في الحزم وسداد الرأي ، وكان وزيره ضياء الدين شديد الاعتداد بنفسه ، مستعليًا على أهل مملكته ، ولم يحسن معاملتهم ، فضجروا من سياسته ، وثاروا عليه وعلى مَلِكِه الأفضل ، ووقفوا إلى جانب العزيز عثمان بن صلاح الدين وعمه الملك العادل ، وأعانوهما على انتزاع دمشق من الملك الأفضل ، واضطر الأفضل إلى الصلح ، وأن ينتقل من ملك دمشق والشام إلى ولاية صغيرة في صرخد [1]، فخرج ابن الأثير متخفيًا خوفًا على حياته ولحق بالأفضل في صرخد[2] .

وأخذت الأيام تتقلب بابن الأثير ، فعندما خرج الملك الأفضل من صرخد إلى مصر لحق ابن الأثير به ، ثم ترك الأفضل مصر عائدًا إلى الشام ، فخرج ابن الأثير من مصر مستترًا خوفًا على نفسه من جماعة كانوا يتربصون به ، ولحق بالأفضل في الشام وأقام في صحبته من سنة ٥٩٦هـ إلى سنة ٦٠٧هـ ، وكان نجم الأفضل آنذاك آخذا في الأفول ، فانتقل ابن الأثير إلى خدمة الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فلم يطل مقامه عنده، فعاد إلى الموصل والتحق بخدمة ولده ناصر الدين محمود ، ثم بدر الدين

---

(١) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، انظر : معجم البلدان لياقوت ٣ / ٤٠١ ، ط : دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٩٧م .

(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٩٠ ، وضياء الدين بن الأثير لـ محمد سلام صـ ٣٧-٣٩، ومقدمة المثل الثائر لأحمد الحوفي ، وبدوي طبانه .

أرسلان شاه لؤلؤ الذي كان وصيًا على ناصر الدين محمود ، وملكًا للموصل من بعده[1].

وقد ظل ضياء الدين بن الأثير طوال تسعة عشر عامًا – وهي الفترة الأخيرة من حياته – مستقرًا بالموصل بعد طول أسفاره شرقًا وغربًا ، شمالا وجنوبًا ، سعيًا وراء الجاه والمجد والغنى ، وفي هذه الفترة تفرغ ابن الأثير للأدب والنقد قراءة وكتابة وتعليمًا [2].

وكما حفلت حياة ابن الأثير بالسعي وراء الجاه والمجد ، حفلت كذلك بالعلم والأدب والتدريس والتصنيف ، فترك لنا ثروة نفيسة من المصنفات الأدبية والنقدية من أهمها [3].

١ – المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر .

٢ – الوشي المرقوم في حل المنظوم .

٣– الاستدراك على المآخذ الكندية من المعاني الطائية.

---

(١) راجع: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٩٠ ، ٣٩١ ، والمثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير، د/ بدوي طبانه ، ص ١٢ ، ١٣ ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٦٦م ، وضياء الدين بن الأثير ؛ لمحمد زغلول سلام ، ص ٤١-٤٤ .

(٢) انظر : ضياء الدين بن الأثير لـ محمد زغلول ، ص ٤٤.

(٣) انظر في ذكر مصنفاته : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٩١-٣٩٢ ، ومرآة الجنان لليافعي ٤/ ٩٨ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٢ / ٣١٥ ، والأعلام للزركلي ٨ / ٣٥٤ ، ونصوص نقديه لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٣٠٥، ٣٠٦ ، والمثل الثائر في أدب الكاتب لابن الأثير ، د / بدوي طبانه ، ص ١٤.

٤- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور.

٥- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب .

٦- المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء .

٧- رسائل ضياء الدين بن الأثير .

وغير ذلك من المؤلفات مما يدل على غزارة علمه ، وسعة أفقه ، وطول باعه في الأدب ونقده.

غير أن أكثر الكتاب يأخذون عليه إفراطه في الاعتداد بنفسه ، وإعجابه الشديد بإنشائه وآرائه واستنتاجاته ، وتطاوله على الآخرين ، ومحاولته الغض من شأنهم ، في سبيل إظهار تفوقه عليهم وتفرده من بينهم(١).

ومع تأكيدي على أن العالم الكبير ينبغي أن يكون صاحب خلق رفيع ، وعلى أن النقد ينبغي أن يكون موضوعيًّا ، وحياديًّا ، ومنصفًا ، فإنني أشير إلى أمرين :

١- أننا وإن أنكرنا على ابن الأثير إعجابه الشديد بنفسه وتطاوله على الأخرين ، فإن ذلك لا يعني انتقاص مكانته العلمية أو النيل منه .

---

(١) راجع في ذلك : البيان العربي ، د/ بدي طبانه ، ص ٢٧١ ، نشر مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٣١٦هـ / ١٩٧٦م ، الطبعة السادسة ، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذنا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٣٠٤ ، والبلاغة تطور وتاريخ د/ شوقي ضيف ، ص ٣٢٤ ، ط: دار المعارف مصر ١٩٩٥م ، والصور البديعة بين النظرية والتطبيق د/ حفني محمد شرف ، القسم الأول ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، ط: مطبعة الرسالة ، نشر مكتبة الشباب بالمنيرة سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

٢- أننا ينبغي أن نفرق بين خلق الناقد وعلمه ، فنعمل على الإفادة من آرائه النقدية الواعية ، ونطرح جانبًا تلك الآراء التي نرى أنها جاءت نتيجة الميل أو الهوى ، وهذا من أهم شروط القراءة العصرية التي تعمل على تنقية التراث وإعادة كتابته بما يتناسب وروح العصر الذي نعيش فيه .

وكانت وفاة ضياء الدين بن الأثير سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد ، وكان قد توجه إليها برسالة من صاحب الموصل فوافته منيته بها [١].

ب- "المثل السائر" وقيمته العلمية:

اقترنت شهرة ضياء الدين بن الأثير بشهرة كتابه "المثل السائر" وذيوع صيته في الآفاق ، حتى غطى هذا الكتاب على سائر مصنفاته من جهة ، وعلى مكانته وحياته السياسية من جهة أخري ، فمتى ذكر ضياء الدين بن الأثير ذكر كتابه "المثل السائر" ، ومتى ذكر الكتاب ذكر صاحبه[٢] .

يقول ابن خلكان : ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله كتابه الذي سماه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" جمع فيه فأوعب ، ولم يترك شيئًا يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه[٣].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣٩٦.

(٢) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير د/ بدوي طبانة ، ص ١٦ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣٩١ .

وقد نقل اليافعي في "مرآة الجنان" كلام ابن خلكان ، وأشاد بالكتاب[1] ، وأشار السيوطي وغيره إلى شهرة الكتاب ومكانته[2] .

وقد تهيأت لهذا الكتاب عوامل وظروف مواتية جعلت منه كتابًا متميزًا بين مؤلفات ابن الأثير من جهة ، وبين كتب الأدب والنقد من جهة أخرى ، نذكر منها :

١- أن ابن الأثير ألف هذا الكتاب بعد أن وصل إلى قمة مجده وذروة نضجه الأدبي في أخريات حياته ، فجاء خلاصة تجربة أدبية ونقدية وبلاغية طويلة ، يقول د/ محمد زغلول سلام : ويغلب على الظن أنه آخر ما ألف ابن الأثير من الكتب ، أو ربما سبق كتاب الاستدراك ، فقد ذكر في بعض نسخه أنه فرغ من تأليفه يوم السبت الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢هـ[3] ، وهو -آنذاك- في الخامسة والستين من عمره .

٢- أنه كتب هذا الكتاب – على الأرجح- في أوائل القرن السابع الهجري بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها ، واختلاف مناهج البحث ،

---

(١) انظر : مرآة الجنان لليافعي ٤ / ٩٨ .

(٢) انظر : بغية الوعاة للسيوطي ٣ / ٣١٥ ، ونصوص نقدية لأعلام النقاد العرب لأستاذتا المرحوم د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٣٠٦ ، ومقدمة المثل السائر لأحمد الحوفي وبدوي طبانه ، ص ١٧ ، والصور البديعة بين النظرية والتطبيق د/ حفني محمد شرف ، القسم الأول ، ص ٢٧٨ .

(٣) ضياء الدين بن الأثير لـ محمد زغلول سلام ، ص ٥١ .

وتعدد الآراء في البيان ، وبروز كثير من النظريات والمؤلفات الأدبية والنقدية[١] ، وكان ابن الأثير واسع الثقافة والاطلاع على مصنفات من سبقوه ، مما كان له أثر واضح في عرضه ودراسته ومناقشته للقضايا النقدية التي تناولها في هذا الكتاب .

٣- أن ابن الأثير كان من الكتاب المعدودين في دولة الأيوبيين ، وقد هيأت له مكانته الأدبية والسياسية أن يتصل بكبار علماء وكتاب دولة صلاح الدين الأيوبي من أمثال : القاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصفهاني ، وغيرهما [٢].

وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله ، فإذا أنشا الفاضل رسالة أنشأ ابن الأثير مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات [٣].

وقد أسهم ذلك في صقل ملكته الأدبية ، ونضوج حسه النقدي.

وهاكم طرفًا من نماذج كتابته ورسائله :

أ- في فروع الدين بصفة عامة والصلاة بصفة خاصة ، يقول :" وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التي هي للدين ملاك ، فلُنتبعها بالفروع التي هي له مساك : وأول ذلك الصلاة ، وهي في مباني الإسلام الخمس أوكدُ خَمسهِ ، وآخر ما وصى به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند مفارقة

---

(١) انظر : البيان العربي ، بدوي طبالة ، ص ٢٦٩ .

(٢) ضياء الدين بن الأثير لمحمد زغلول سلام ، ص ٣٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣٩٦.

نفسهِ ، ومن فضلها أنها العمل الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا عذر في تركها لأحد من النّاس ، فيقال : إنه يُعذَر، فاجمع الناس إليها ، واحملهم عليها ، ومُرهم بالاجتماع لها في المساجد ، ونادِ فيهم بفضيلةِ صلاة الجماعة عَلَى صلاةِ الواحد"[1]

ب- ويقول في النهي عن الاحتكار :

ومن الناس من آتاه الله مالاً فبث في الأسواق جنود ذهبه وورِقه ، واحتكر ما حمله الميزانُ من ذوات رطله ، ووسعه الكيل من ذوات وسقه ، فأصبح فقراء بلده في ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق ، فليمنع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله محتكراً ، ومعاش عباده محتجزًا ، وليؤمروا بأن يتراحموا ، ولا يتزاحموا ، وأن يأخذ الغني منهم بقدر الكفاف ، ويترك للفقير ما يعينه على الإسعاف ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :" لا حكرة في سوقنا ، لا يعمد رجالٌ بأيديهم فضولٌ من أذهابٍ إلى رزق من أرزاق الله تعالى ينزلُ بساحتنا ، فيحتكرونه علينا ، ولكن أيُّما جالبٍ على عمود كبده فذلك ضيف عمر ، فليبع كيف شاء الله ، وليمسك كيف شاء"[2]

ج- وينهي عن التغني بالقرآن فيقول :

" ومما حيد فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءةٌ تخرج حروفها من غير مَخرَجٍ ، وتبدو معوجَّةً ، وهو قرآن عربيٌ غير ذي عوج ، أمر

---

(١) المثل السائر ٢ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٠٦ .

الله بترتيله ، وإيراده على هيئة تنزيله ، فمن قرأه بالترجيع والترديد ، وزلزل حروفه بالتمطيط والتمديد ، فقد ألحقه بدرجات الأغاني ، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعاني ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإيَّاكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين، وسيجيئ بعدي قومٌ يرجَّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونةٌ قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم)[1].

د- ثم يقول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

"واعلم أن الأمر بالمعروف عبادة يتعدّى نفع صاحبها إلى غيره ، وتستضيف خير المأمور به إلى خيره ، وهي الجهاد الأكبر الذي تقابل عواصي النفوس ، وتضرب فيه رُءوس الشَّهوات التي هي أمنع من معاقد الرءوس ، فقتيله يحيا بقتله ، وجريحه يؤسى بجراحة نصله ، وبمثل هذا الجهاد تُستنزل أمداد النِّعم مضعفة ، كما تُستنزل أمداد النصر مردفة ، فأقدم عليه ذا عزمٍ باتر ، وطرفٍ ساهر ، وقدم ثابت صابر ، حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحًا ، وتكون فيمن دعا إلى الله وعمل صالحـًا .

* * *

(١) المثل السائر ٢ / ٣٠٨ .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
*	مـقــدمـــــة .	٥
١.	الغزل وفنونه في العصر الأموي .	٩
٢.	ازدهار فن النقائض في العصر الأموي .	٢٩
٣.	الشعوبية بين جذورها الأموية وحدتها العباسية .	٤١
٤.	نصوص وتراجم وتعليقات في ضوء العصر العباسي.	٦٣
٥.	من وراء القضبان لعلي بن الجهم .	٦٥
٦.	بين البحتري والفتح بن خاقان.	٧١
٧.	بين أبي فراس والمتنبي.	٨٣
٨.	ضياء الدين بن الأثير ونماذج من كتاباته.	٩٣
*	فهرس الموضوعات.	١٠٣

* * *